# فاجر

رواية

م: عادل إبراهيم الرواشدة

الطبعة الأولى

2020م ـ 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

**عنـــوان الكتاب: فاجر**

**اســـــم المـؤلف: م: عادل إبراهيم الرواشدة**

**التصنيف الأدبي: رواية**

**رقم الإيـــــداع: 23130 / 2020**

**الترقيـــم الدولي: 6 - 56 - 6749 - 977 – 978**

**تـصميـم الغلاف: د. محمد وجيه** **التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين**

**التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه** **رقـــــم الطبعـة: الطبعة الأولى**

**المديـر العام: د. فادية محمد هندومة**

**دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد**

**جوال: 00201211132879**

**البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com**

**حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.**

# فـــاجـــــر

روايـة

م. عادل إبراهيم الرواشدة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

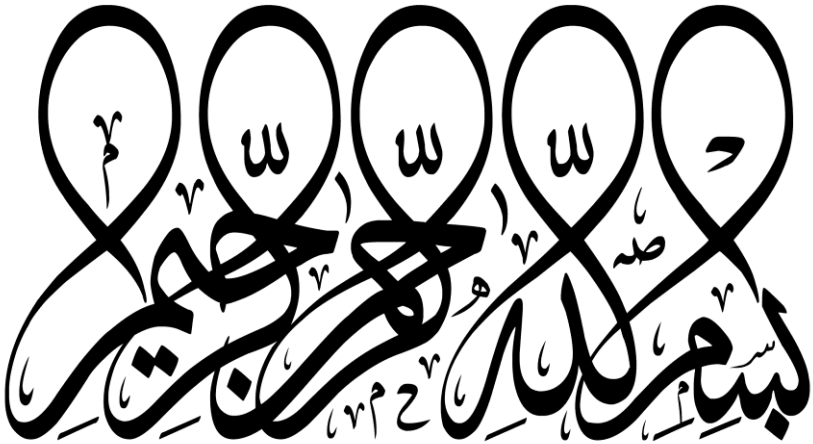
بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

(تذكريني عند المغيب، في الصباح وفي المساء، فإنني والله أحبك والقلب، والله يديم المحبة)....

بعد أربعين يوماً من وفاتك، ما زلت أذكر كلماتك لأمي، وشوقك لطفلك البكر وزوجتك في سفرك، تذكريني عند المغيب، وها قد أتى المغيب يا أبي، وتواريت خلف التراب واختارك الله في سن الخمسين، كم تمنيت أن نكبر سوياً، أن أرى هيبتك وشيبتك ووقارك الذي ملأت به الدنيا، وما زلت بحاجة لنصحك ما حييت....

اختارك الله بينما كنت تنتظر حفيدتك، لابنك البكر ذاته، وها هي سلمى ستبصر النور بعد أقل من ثلاثة أشهر، وما زالت كلماتك لي بأنها ابنتك أنت، وبأنها ستتربى في بيتك لا في بيتي،

وبأنها ستناديك(يابه)، لن أخيب الظن أبداً، وستتربى في بيتك، كان حلمي أن تؤذن أنت في أذنها، لن أنسى لهفتك لها وشوقك ما حييت....

ما زلت أذكر ما قبل وفاتك بيومين، فيديو قصير لك تدعو لنا بتلك الدعوات البسيطة الصادقة، من القلب إلى القلب، (حبايبي، يوفقهم الله، إن شاء الله تضلوا حلوين)، دعني طول العمر أبكيك، ولك أن تعلم إن كنت تعلم الآن بأن البكاء للثالثة فجراً لا يشفي غليلي، وعلى مر الزمان الذي عشت معك فيه وجملتك المعتادة لي: (كون زلمة أو حط على راسك حجار).

والله ما زلت أسمع طقطقة حذائك على بلاط بيتنا، ونظرتك الحادة في كل موقف تقتلني، ما زالت مواقفك الجميلة تُذكر، ومن الناس ما زلت أسمع ما لم أكن أعرف من خيرك الكثير، يوم زفافي، يوم تخرجي، يوم نجاحي في الثانوية، ويوم نجاح روايتي هذه وحصولها على المركز الثاني، كم سنتذكر وكم سنشقى.

طبت لي حياً وطبت لي ميتاً أبي، فإنني والله أحبك والقلب، وعلى الرغم من أن روايتي هذة تعالج الفجور المذكور في الحياة بأنواعه وبكثرة، إلا أن فرحك بنجاحها أفرحني والآن يقطع قلبي لأشلاء، اسمح لي والدي الغالي أن أهديك حبي وسلام قلبي، واسمح لي أن أهديك دعواتي وصلواتي للأبد، وعلى الهامش أهديك هذه الرواية، وسنذكرك كرغبتك دوماً عند المغيب، وفي الصباح وفي المساء، أحبك أبي.....

**المهندس**
**عادل إبراهيم الرواشدة**

****

# كلمة الكاتب

لم نعِش منذ بدأ الخلق في سُبات ونبات، ولم نعِش في بستان زهور، لقد قتلَ قابيل أخاه هابيل، بعد زمن من وسوسة الشيطان ليكون سبباً في نزول آدم وحواء من الجنة.

توالى شر البشر ليملأ كلّ الأرض، منهم من وسوس له الشيطان ومنهم من كان شيطانَ نفسه، بل وبرع في الشر أكثر من الشياطين أنفسهم، حتى استغربت الشياطين شر هذا الكائن، ما فعله وما جال فقط في تفكيره، أشرار وأنقياء، تجَبّرَ منهم وقال بأنه الإله، قطَّعَ الأيدي والأرجل وزنى بالنساء، ومن حكم بالحديد والنار، عباد كان أكثر همهم هو لقمة العيش.

ورجال حكموا في طاعة الله واتبعوا ناموس الأنبياء، بل وضحوا في سبيل الله، حكموا الجنّ والإنسان وبنوا الحضارة، ومع ذلك ما زال الشر يملأ الأرض، فتلك راودت نبياً عن نفسه، وتلك

الأخرى خانت زوجها وهذا رجل صالحٌ في الظاهر وطالح في غيابات جُبّه، العهر والفسوق والتسلط يملأ عالمنا القذر، حكومات زائفةٌ همها جني المال وتحويله للعملة الصعبة، تلك العملة التي تحكّمَت بالعالم من خلال مؤامرةٍ قذرة وعائلةٍ يهوديةٍ بدأت في السيطرة على دول وشعوب، وبمساعدة الشياطين، وشعوب أصبح كلُ همها المال والشهوة، سهلٌ هو عمل الشياطين في ظل وجود ضعاف النفوس، وسيبقى الخير رغم ذلك، ولكنَّ الشرَّ أيضاً باقٍ متمدد، وإلى قيام الساعة، وسترى في نصي هذا عهر العالم أجمع، وفي بلدة صغيرة جمعت فسوق العالم، وما لنا غير ترجي الطهر والعفة، ويا فرحة يعقوب بيوسف مُري بنا، فلو هُزمنا سنظَل وحيدين، لا إخوة لنا، لا يعقوب ليبكينا، ولا زليخة لتراودنا، وحده قهرنا هو بئرنا وذئبنا، ذبيحون نحن ولا دمَ على قمصاننا، ولا بد لنا من العلاج قبل النهايات، فقد قال ابن تيمية بأنّ العبرة بكمال النهايات، لا بنقص البدايات، فلك أن تستخدم

هذا النص لتزيد فسوقك إن وجد، أو أن يزيد من إيمانك فتغدو مُصلِحاً عظيماً.

لك أن تعلم بأن الكتب تُباع في أوطاننا على أرصفةٍ مليئة بالغبار، وتباع الأحذية في محلاتٍ مكيفة وتُمسح كل يوم، فسلام على أُمتي، وبأنّ الرجل لا يحفظ إلا خمسة أشياء.

الرجال قوامون على النساء، ومثنى وثُلاث ورباع، وإن كيدهن عظيم، وللذكر مثل حظ الانثيين، والنساء ناقصات عقل ودين، في هذا النص الكثير من السفالة التي تدور في هذا العالم، فإن كنت من ضعاف النفوس، أو ممن تودعهم والداتهم قبل الذهاب للمدرسة بقبلة، فلا تقرأ نصَي هذا، بل وارمه في أقرب سلة نفايات، ولك أن تعلم بأن جميع الشخصيات الوارد ذكرها في هذا النص ليست حقيقية، بل من وحي عقل الكاتب فقط، إلا من وجدها على مقاسه فليرتدِها!

****

همَّ الشيخ الجليل خادم المسجد ومؤذنه داخلاً فقال:

- أنا أهوى الأطفال!

قالها عندما رأى طفلاً صغيراً لم يتجاوز السادسة من عمره، داخلاً لأداء الصلاة مع أبيه، توجس الطفل خائفاً، ودخلوا المسجد جميعاً مبكراً، فالإمام لم يحضر بعد، من الحاضرين من يقرأ كتاب الله، ومنهم من يمسك "سُبحته" ويسَبح ويشكر الله على نعمه، وإذا أزحت بصرك لأطراف المسجد، فبإمكانك رؤية شاب خلوق، نشأ مسلماً مرابطاً على الصلوات في المساجد، يقوم بتنظيف المسجد ريثما يحين موعد الصلاة.

أعلم بأنك إنسان منطقي، وتَعلمُ بضرورة وجود الشوك في بستان الزهور، تصورك ومنطقيتك تعجبني، فإن أشحت ببصرك عني في الأرجاء، فبإمكانك رؤية أحد المصلين يلعب بهاتفه، يتفقد مواقع التواصل الاجتماعي ريثما يحين موعد الصلاة، لا بأس فهذا يخون

صلاته والمسجد بشيء نظيف في ظاهره، ويبقى أفضل حالاً ممن يلعب بأنفه تارة، وينتف سجاد المسجد تارةً أُخرى.

وبين هذا وذاك لم يعجبك، مظهرٌ غير مريحٍ للعين، رجلٌ في الأربعين من عمره، متَكئهُ أحد أعمدة المسجد، على وسادةٍ أُعدت لكبار السن، ممن نخرت هشاشة العظام أجسادهم، ونكَّلَ بهم "الروماتيزم" والأمراض، بلحيةٍ خفيفةٍ متآكلة، وجه ساخر ملول وثياب من "البالة"، ولا تستغرب فثيابٌ باليةٌ سهل تمييزها على وجهٍ عابسٍ أكل الزمن عليه وشرب.

دعك منه الآن، وانتبه، فقد جاء الإمام وصعد المنبر، ولا تُضِع جمعَتك في لهوٍ فارغ، لا أدري لمذا تقودك نفسك التي ملت من أجواء الهدوء الذي يسبق حضور الخطبَة، لا أستغرب منك، فقد كان الإمام يبحث عن الورقة التي جلبها ليقرأها على مسامع المصلين، والتي ضاعت في جيوبه الحريرية، فورقةٌ باليةٌ سهلٌ

ضياعها، انتقاها بعنايةٍ من ملف الخُطب خاصته، وقد كانت ورقةً لخطبةٍ قرأها على مسامع ذات المصلين أنفسهم قبل أربع سنوات.

لماذا تقودك نفسك الملولة للنظر عبر النافذة غير المرتفعة بجانبك، لماذا تقودك روحك الحاسدة للنظر لسيارة الإمام "الرينج روفر" ذات اللون الأسود البَراق، مبعداً إياها عن العين وعن سيارات المصَلّين في ذلك الحيّ "المنتوف"، معه حق، فآخر مرةٍ عندما عجز أحد اللصوص عن فتح بابها، ليسرق هاتف الإمام الحديث بآخر إصداراته، قام بجرح هيكل السيارة جرحاً ليس بيسير، يا لوقاحة اللصوص، لو طلب من الإمام صدقةً لكان أعطاه، ولكن نفوسهم تقبَل وتتغذى بالحرام، أم أنه قد طلب تلك الصدقة، أم أن كلَّ فقراء القرية قد طلبوا!

في أوج سرحانك، تُفكِر في أنّ ثمن مقوَد سيارة صاحب السماحة، قد يجلب لك ولأطفالك أكياساً كثيرةً ولحماً وفيراً يكفيكم لأسابيع، بل أن ثمنه سيجعلكم تزورون المؤسسة الاستهلاكية، تبانون بمظهر الأغنياء في عيون الجيران الجائعين كحالكم، يحرمكم ثمن مقوَدٍ فقط من الجوع والحرمان، ومن الخبزِ الرديء ذي الكمية الضخمة من "الخميرة"، والتي غالباً ما تؤلمكم بطونكم الخاوية بسببها.

سرحتَ في تفكيرك كثيراً، فثمن "إكسسوارات" سيارة سموه ومعاليه كافٍ لشراء فساتينَ كثيرةٍ لزوجتك، التي ترتدي ذات "البيجاما" البالية من سنوات، والتي غالباً ما تداعب يدك قبلَ النوم بحنان، لتلفَ ظهرك لها وتسرقَ اللحاف عنها بحركةٍ بارعة، وتجيبها بتلك الإجابة التي سئمت منها زوجتك في كل ليلةٍ وعلى مرِ سنوات ...

- تعبااان، مش اليوم، أجليها لبعدين الله يرضى عليكي.

أجفلكَ صوت الإمام نافخاً في "المايكروفون"، ضاحكاً مستبشراً وقد وجد ورقته المنشودة، بدأ يمسح عرقهُ عن وجهه المكتنز باللحم، فقد كان يظن بأنه سوف يُحرَج من ضياع خطبته في إحدى جيوبه الحريرية.

وبعد أن قرأ وتلاعب بقوافي الكلمات، والتي يتلوها معظم الأئمة في بداية خطبته، تشجَّع ورفع صوته تارةً، وأخفضه تارةً أُخرى، هذا الرجل يعرف كيف يجذب الانتباة للكلام، يعرف كيفيَة إفاقة كل من هو"سرحان" يفكر في شؤونه، خصوصاً أنت، فأنت في وادٍ والإمام صاحب مفاتيح الجنَة في وادٍ آخر، يشرَب في أحلامه من نهر عسل الجنة، والكثير من الغلمان يجلبون له الخمر اللذيذ حلو المذاق، بعد ممارسته لما يرغب من الشهوات المسموحة، فغالباً ما يخاف أن يروي لزوجته تلك الملذات، ولم يذكر أمامها حورُ العين، خصوصاً وهي تطبخ وتحمل المقلاة الكبيرة المتينة.

- وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصبرون على الجوع، يقتاتون أياماً على بضع تمرات، حتى أنّ رسول الله قد ربط حجراً على بطنه، من شدة الجوع في أيامٍ قحطٍ شديدة البأس.

يجب أن نصبر على الجوع، يجب أن نصبر على الحرمان، فكلٌّ بأجره، فهنيئاً لكم الجنة إن صبرتم وشكرتم، وإن شكرتم لأزيدنكم، واتقوا الله يا أولي الألباب.

إخوتي المصلين، اللّٰهُمَّ إني داعٍ فأمّنوا...

وبعد دعاء كثير، وبعد تحريك الإمام يديه كثيراً مرتجفاً، ليعطيَ هولاً عظيماً للموقف، ويُريَ كلّ العالم بأنه متأثرٌ ومؤمنٌ عظيمٌ، جلمودٌ في حبِّ الإله، صلى أغلب المصلين سُنّةَ الصلاة، ثم همَّ الجميع بالخروج من المسجد متوالين، منهم من شغَّلَ سيارته ومضى، ومنهم من مشى إلى بيته، يفكر في طعام الغداء، إلا الإمام، فقد كان يفكر في "أم ملحم"، تلك الأرملة الثلاثينية

ممشوقة القوام، والتي في حضنها ثلاثة أيتامٍ ذكور ويتيمةٌ لم تتم الثالثة من عمرها.

يا لذلك الإمام الطيب الغيور، فلقد كان واضعاً النقود في جيبه، ليعطيها للسيدة الأرملة بعد انتهاء الصلاة مباشرة، لن يُعطيها ذلك مجاناً، ولكن كلٌّ بثمنه.

وأرجوك بألا تُشعل فتيل السفالة داخل عقلك الشكاك، فالمقابل كان بأن تدعو "أم ملحم" لولد الإمام بالنجاح، ولوالده ووالدته بالرحمة والمغفرة والسلوان.

عُبَادة، طفل لم يتجاوز السادسة من عمره، بشعر ناعمٍ أشقر وعيون زرقاء كأنه الملاك، لم يكن ملاكاً بنظر أبناء الحَيّ، ممن يغارون من اجتهاده، ولكنه كان ملاكاً جميلاً في نظر رجل يهرول على درج المسجد، يلحق بعبادة ووالده الذي يمسك يده بشغف، يعلمه الأدعية والأذكار، ويراه شاباً يافعاً باراً بوالدته.

- أبو عُبادة، استنى يا رجل!

إنه خادم المسجد ومؤذنه، من جديد، أشاح عبادة بنظره عنه، وتحرك قليلاً للخلف.

- معلش يا ابني، معلش، هاذ رجل طيب، شوف لحيته الطيبة ووجهه السمح!

غالباً ما يكون الإحساس الأول تجاة شخصٍ تصادفه، حقيقياً تماماً، فلكل إنسان هالةٌ تحيطُ به، بل وتبين ماهيته، لربما كان إحساس الأب تجاه خادم المسجد صادقاً، ولربما كان إحساس عُبادة هو الصادق!

- أبو عُبادة، أنا بعلم الأولاد تلاوة كتاب الله، وأحكام التجويد، بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، وحالياً بجمع الأولاد، ورح نبدأ من الأسبوع الجاي إن شاء الله، إيش رأيك ييجي عُبادة وأعلمه مع الأطفال، وأنفعه في دينه ودنياه!

- بارك الله فيك، ويباركلك بعلمك يا شيخ.

وعلى الطرف الآخر من الشارع، وعلى عجَل، فتح إمام المسجد ومن كان يلقي الخطبة باب سيارته، قبل أن يقبِّل أحد المارة رأسه.

- الله يبارك بعمرك يا حضرة الإمام، الله ينفع فيك الأمة.

- يا ابني الله يخليك، والله أخجل من كلامكم الجميل.

وجذبَ رجلٌ آخر الإمام من يده المباركة، وهمس بأذنه بحذر:

- بترجاك يا حضرة الإمام، بنتي بعدها تعبانة، بتصيح بالليل والنهار.

- بنتك بتعاني من مسٍ لجنيٍ عاشق، شايف إنه التلاوة على جسدها مباشرة لازمة، مشان تخلص من شر هذا الجني الحقير!

- يا شيخي المهم البنت تطيب، وأنت رجل مؤمن، وكل البلدة بتحلف بحياتك، و....

- معلش يا ابني، معلش، رح أزورها الليلة، وبترجاك لبسوها لباس خفيف عشان أعرف أقرأ على جسدها مباشرة!

ماذا نحتاج أكثر من شيخ جليلٍ بلحيةٍ مباركة، سوداء طويلةٍ غزيرة، وجهه كأنه البدر، يشِع بالإيمان والنقاء، يعلمنا الصبر على الجوع، الصبر على حرماننا، بل وعلى معداتنا المحرومة من كلّ شهيٍّ نراه على التلفاز وفي الإعلانات، وللأمانة تلك الإعلانات تجعل لعابك يسيل، حتى وإن كنت في الأربعين من عمرك مثلي تماماً، ماذا نحتاج أكثر منك يا جليلنا وعظيمنا ومولانا، ليعم

إسلامنا الأرض، ونتحد ونصبر ونكون أكثر أيماناً وتقرباً من الله.

متلهفاً واقفاً أمام بيت الأرملة، تلك الثلاثينية ذات القوام الممشوق، قام بطرق الباب بحذر، متفحصاً الشارع وكلَّ من هو ذاهبٌ وآتٍ.

- أنا، أنا.... إمام المسجد جاركم، اتصلتي فيني قبل يومين، وكنتي طالبة العون من أهل الخير يا جمي...، يا أختي الفاضلة!

وبعدَ أن وضعت غطاء رأسها، ووقفت بالباب شكرته لتلبية النداء باستجداء.

- أختي الكريمة، أنا بدي أدخل وأشوف أوضاعكم في البيت وأتطمن عليكي وعلى أطفالك.

- بس يا شيخ، أنا أرملة وما عندي غير الأولاد، بخاف الناس يحكوا علي.

- ما عليكي من الناس يا أم ملحم، أنا أخوكي بعهد الله، وكل البلد بتحلف بحياتك وما حدا بقدر يجيب سيرتك بكلمة!

- تفضل يا شيخ تفضل، الله لا يضيعلك أجر، ويرزقك على قد نيتَك.

أثارت تلك الجملة في نفس حضرة الإمام الكثير، وبوقار يجيده الأئمة:

- إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ربي يرحم جوزك ويغفرله.

- اللّٰهُمَّ آمين، ربي يبارك فيك وبولادك ورزقك يا حضرة الإمام.

دخل الإمام بسرعة، وكان يتفحصها بدقةٍ شديدة...

ألم أخبرك بأن عقلك أحياناً ما يكون سافلاً مريضاً يفكر ويرسم "سيناريو" بعيداً كل البعد عن رغبات مولانا العظيم، لقد

كان يتفحص ثلاجة منزلها المخلوع بابها، بدقةٍ شديدةٍ بل ويبكي قلبه الحنون بحرقةٍ على حالها وحال أيتامها.

ناولها النقود بحنانٍ يجيده في كل مكانٍ عدا فراش زوجته، ونظر بعينيها نظرةً جعلت قلبه يسرح ويمرح في حدائق الجنان، بل ويسقط في أسفل سافلين.

وبعد أن لمس يدها بدون قصد، سحبت يدها بسرعة...

- أستغفر الله، آسفة يا شيخي.

- معلش يا أختي، أنا مثل أخوكي إن شاء الله!

- شكراً يا شيخ.... رح أشتري أكل للأولاد اليوم، والبنت الصغيرة رح تشرب حليب اليوم.

- أنا كل أسبوع رح آجي لعندكم وأتطمن عليكم!

خرج الإمام من الباب كما دخله، ومجدداً دعك من سخف ما تفكر فيه، فمن المستحيل أن يفكر الإمام تفكيراً كتفكيرك،

وليس بتلك الدناءة ليفكر فيما تخفيه تلك العباءة خلفها، فهو شيخٌ جليل يقف في حضرة موت زوجها الشاب.

دفترٌ جديد وقلم، وطفل لم يتجاوز السادسة، يسير للمسجد مع أطفال الحيّ، متجهين للمسجد وخادمه بل ومؤذنه، ليقرؤوا ما تيسر لهم من كتاب الله ويتعلموا أحكام التجويد.

- يا أبو عُبادة ليش بعثته؟

أنا مستعدة كل يوم أعلمه، وكل يوم أحفظه قرآن كريم، يا أبو عُبادة إحنا سكان جداد في الحيّ، وأنا بخاف على ابني....

- أنا بعثته عالمسجد، مش على مكان ثاني، وبعدين معاه كل أولاد الحيّ، وما تنسي يا أم عُبادة إنه "العلم في الصغر كالنقش في الحجر"، قومي سخنيلنا مي الله يرضى عليكي.

ابتسمت أم عبادة، ونسيت عبادة، وكان الظاهر بأنها ستنتظر أخاً أو أختاً لعبادة بعد تسع أشهر.

ثلاثة أسابيع مَرَّت، والإمام أصبح يتردد على أم ملحم مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، وقد اعتاد عليها، وقد اعتادت على المصروف وما لذَّ وطاب، كل ما تشتهيه تشتريه، وكان ثمن ذلك...

لا تظُنّ السوء ولآخر مرة أُخبرك بأن تدحض تلك السفالة خارج عقلك، كان ثمن ذلك هو الدعاء له ولولالديه فقط!

- ماما...مااماا، الشيخ إمام الجامع بده يعطيكي مصاري اليوم؟

جاي على بالي فروج.

ثلاثُة أشهر مَرَّت على وفاة زوجها الشاب، أربعة أشهرٍ لم يدخل بيتها رجل، رغم حاجتها والفقر، وعلى الرغم من أن الجزار كان يُلمح لها على ذلك، لم يدخل بيتها إلا مولانا صاحب القلب العطوف، سنةٌ كاملة مرت على وفاة زوجها ولأول مرةٍ تضع الكحل، ضجَ الإمام ووقف متسمراً في مكانه، وكان قد ناولها النقود

دون عدٍّ، كيف يعدُ وهو سارح مارح في عيون كأنها الزبرجد والياقوت!

- أنا جبتلك خضار وفواكة، و.....

- ليش سكتت شيخي، وشو كمان، وشو اللي مخبيه بإيدك ورا ضهرك؟

- والله خجلان أحكيلك، بصراحة شوية "إكسسوارات" من عند زوجتي، إنتي ما شاء الله جميلة ولازم تهتمي بحالك شوي!

سوارٌ وخاتمٌ وخلخال، لم تحتج أكثر من ذلك لتتذكر رقصها الشرقيّ للمرحوم، ابتسمت وأغلقت الباب واتكأت على الحائط.

- ماما، مالك بتضحكي؟

ليش الشيخ كان بهمس بإذنك مثلي لما أهمس بإذنك مشان إخوتي ما يسمعوا وتشتريلي "شكلاطة"

بده شكلاطة الإمام؟!

- فوت يا ماما فوت، يلا نادي إخوتك مشان تتغدوا.

قالت ذلك أثناء دموع ذرفتها لترسم على خديها الورديين شارعين من الكحل الذي لم تضعه منذ سنةٍ مرت...

- بسم الله..... أبو عبادة قوم، قوم.... عبادة بصرخ بغرفته، قووووم.

ركض الزوجان مهرولين، وجدا ابنهما غارقاً في الكوابيس، يصرخ ويبكي أثناء نومه، ويتكلم بكلام غير مفهوم "ويهلوس".

- لا، لاا!، ما بدي، بابا بزعل مني..... عيب، لا...لاا!.

- أم عبادة، اشربي قهوتك، ليش صافنة؟

- صافنة باللي صار مع عبادة مبارح بالليل، مش مرتاحة يا أبو عبادة.

- توكلي على الله يا أم عبادة، الأطفال دايماً بشوفوا كوابيس!

- لا يا أبو عبادة، الموضوع أكبر من هيك!

- عباااادة، بابا تعال أقعد معنا أنا وأمك، قبل ما تروح عالجامع عند الشيخ مشان يعلمكم تلاوة.

- بابا خلص ما بدي أروح عالجامع، ماما بتدرسني بالبيت!

- لا يا بابا، لا، لازم تتعلم مع الشيخ "أسامة"، لأنه شاطر كثير ورح يعلمك تقرأ قرآن كريم، مشان تصير شاطر مثله!

- بابا ممكن أطلب منك طلب؟

ممكن بس أخلص تلاوة مع الشيخ أروح ألعب مع صحابي شوي؟

- لاا، ما في لعب، بدك ترجع بسرعة مشان أحممك، بدنا نروح نزور بيت جدك.

- ماماا، أنا بدي أتحمم لحالي!

- لا يا ماما، بعدك صغير، يلا روح على المسجد وهينا بنستناك....

....

- ماما، مشان الله، ما بدي أنام، بدي أسهر معك اليوم.

- اللي ما بنام، ما رح أطعميه شكلاطة من اللي بجيبها عمو الشيخ!

- ماما، عمو الشيخ رح يجي يعني؟، لأنه ما أجا اليوم بالنهار.

- لا، لا..... بده يعطيني أغراض وشكلاطة إلكم ويروح!

- معناته رح أنام، وأصحى بكرة بكير مشان آكل شكلاطة.

- حبيبي يله اسبقني عالحمام، واشلح أواعيك مشان أحممك.

أبو عبادة ممكن تحركلي الطبخة، لبين ماأحمم عبادة؟

- أمرك حبيبتي، كم أم عبادة عندي، ولو...تكرم عينك.

-عبادة!

ليش لسا مو شالح بلوزتك؟

- ماما، والله أنا كبرت، خليني أتحمم لحالي.

خلصني يلا ما تشاغب، لانه إذا بتغلبني، رح أحبسك بغرفة الفيران!

مشان الله خليني أشلحك البلوزة وإلا والله بنادي أبوك.

أحياناً يجب فسح المجال للأطفال للتعبير عمّا بداخلهم، من رهبةٍ تجاه هذا العالم القذر والدنيء، فإن كان خوف طفلك منك أكبر من خوفه مما يواجه في العالم فلن يبوح لك.

- عبادة، شو اللي بآخر ضهرك!

مين قرصك، شو هاي يا عبادة، شوو؟!

أخذ الطفل بالبكاء والنحيب، بعد أن صفعته أمه صفعات متتالية من لبؤةٍ جادة في الحفاظ على ولدها.

- والله ما دخلني، والله مش أنا يا ماما!

- أبو عبادة، ياا أبو بطيييخ، تعال شوف إبنك.

- خير، شو فيه، ليش بتضربي الولد؟؟

- تعال شوف شو هاي اللي بآخر ضهره.

- هاي قرصة، لا لا عضَة!

بابا مين عمل فيك هيك؟ لبسيه وتعالوا عالصالون.

- احكيلي يا بابا شو اللي بآخر ضهرك؟

- بابا رح أحكيلك بس أمانة ما تضربني!

وما تحكي لحدا لأنه رح أبطل أروح عالجنة!

أخذ الوالد ابنه بين ذراعيه بحنان لم يعهده الولد من قبل.

- قول يا بابا قول، والله ما أضربك، بعدين شو دخل الجنة بالضربة اللي بآخر ضهرك؟

- بابا الشيخ أسامة كان يوديني يعلمني كيف أتوضى، ولما أخربط كان يخليني أكشف جسمي ويقرصني ويضربني!

- شوو؟ .... وليش ما حكيتلي؟

قامت الأم بتعرية ابنها تماما، وكدماتٍ حديثة، قرصاتٌ وعضاتٌ متفرقة في مؤخرة الصغير وفخذيه، اسودَ وجه الأب وبكت الأم، وجحد الأب عندما لاحظ اعتداءً جنسياً على الطفل، حملاه بسرعةً للطبيب الشرعي، والذي أكدَ على وجود اعتداءٍ جنسي أكدته له عينات الفحص الطبي اللازم، وبعد كتابة تقرير يؤكد الاعتداء، داهمت الشرطة المسجد مع والد الطفل، وفي المتوضّأ، التفتَ خادم المسجد بخوف، مبعداً يده عن مؤخرة طفل آخر كان

يعلمه الوضوء، بعد أن خلع الطفل بنطاله، خوفاً من عدم دخول الجنة....

في مشهدٍ ساخرٍ آخر، تعزف لك الحقائق موسيقى حزينةً مغايرة، لأغنيةٍ صاخبة، كانت ترقص على دقاتها أم ملحم، بقميص نومٍ أحمر، دامعةَ العينين وذات خطّي الكحلة على خديها أمام الإمام الورع، ومعه أربعةٌ من أصحاب اللحى، يصفقون بحرارة، يصفقون بحرارة لجمال الجسد الفاتن ممشوق القوام، لأم ملحم، بينما يتناول أطفالها الشكلاطة اللذيذة في الغرفة الأخرى....

في مراسم دفن حاكم ليبيا، الإيطالي المحتل "بيتروباوديلو"، أرغمت السلطات الإيطالية علماءَ وأعيان البلد على حضور تلك المراسم، وكان من بين الحضور شيخ قراء ليبيا "مختار حورية" رحمه الله، فطلب منه الإيطاليون بدناءةٍ يجيدها المحتل، قراءةَ آيات من القران الكريم على جنازة ذاك الداعر، انزعج الحضور وخافوا على

الشيخ من النكل به، ولكنه فاجأهم بل وتبسّم، ولم يمتنع، وبوقار شديدٍ رزينٍ قرأ:

- (خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه، ثم في سلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه).

فشكروه!

أهلاً بك في أرض الفسوق والعصيان، أرض تحمها سياسات القرن الواحد والعشرين، بقيادةٍ غربيةٍ صارمة، همها هو دحض العالم الثالث والسيطرة على مقدراته ودينه وسياساته، قيادةٌ شيطانية، تستخدم جنودها، ماسونيتها، إعلامها، وحتى فيروساتها وليدة المختبرات، في إبادة الشعوب فكرياً ودينياً، وحتى الإبادة بالقتل والتنكيل، ليس هذا ما يُحزن القلب، فالتنكيل بك من عدوك محتمل، ولكن التنكيل بنا من بعضنا، هو ما يهز عرش الدين ويحزن القلب ويدمي العين.

أعتذر منك، فلغاية اللحظة، لم أخبرك باسمي، رغم أنني بدأت بالفعل بسردِ قصص الدعر والفجور لك، ولكن هذة هي البداية فقط، لحفل ماجنٍ يحوي سفالةً مخبأةً في دهاليز البيوت، وفي الشوارع، في متوضّأ المسجد كما رأيت، وحتى في ذهنك المليء بسفالاتٍ ليس لك الجرأة على إخراجها، خوفاً على مكانك المرموق، وشخصيتك المحترمة أمام الجميع.

فلتعتبرني رمزاً، لأكن أسطورةً ماجنةً في عقلك الثَمل، لابد وأنني مررت على كل أنواع الفجور، حتى أصبحت بدون قلب ولا مبدأ ولا دين، آخر مرة تذكرت بأنني مسلم، كانت عندما اشتريت هاتفاً نقالاً بالأقساط، ورأيت هويتي الشخصية مكتوباً بها "مسلم".

أكثيرٌ بي أن أكون رمزاً لكل المليارات على هذه الأرض؟! ليس كثيراً بي وسترى يا هذا فأنا واحدٌ منهم، وأنا أُمثّل فسوقك وعصيانك، أُمثّل رغباتك المدفونة وما قد أخرجت للعالم وما بقي مدفوناً داخلك، وشئتَ أم أبيت، فأنا أمثّل حلمك وحلمها، رغباتك المجنونة إن وجدت!

في الأربعين من عمري تقريباً، بشعرٍ أجعد أشعث، وبثياب من" البالة" كصاحبها، أنتظرها لتجف أثناء الغسيل لأعاود ارتداءها وأنا بسروالي الداخلي القذر، واسمي هو....

ألا تذكرني متكئاً على أحد أعمدة المسجد في خطبة الصبر على الجوع والتي كان يلقيها مولانا الإمام!

لي من الأبناء اثنان، وطفلتان صغيرتان، أو على الأقل، هؤلاء من هم على اسمي في الأحوال المدنية الحكومية، لا تتتبع أطفالي، ولا تكن طماعاً في كشف كل شيء، فأنا لا أرغب في الإفصاح لك عن أبنائي غير الشرعين، وصدقاً بأنهم كُثر، والذين لا أعرف أكثرهم، والذين بدورهم لا يعرفونني، ممن حملت بهم أمهاتهم مني طوعاً أو كراهية، في أروقة الحمامات وفي الحديقة العامة، وأسفل درج العمارة التي أسكنها، وحتى في بيت بائع اللحم.... نعم، ذاك الجزار الذي كان يحاول إخراج أم ملحم عن شرفها مقابل المال، ولا تستغرب فالعين بالعين.

رغم أنك تشعر بالقرف أثناء استفراغي لهذا النص أمامك في مشهدٍ بشعٍ للعين، هل تشتّم رائحة النص؟؟ لا بأس فهذة البداية فقط، وعلى الرغم من أنني فاسقٌ كبير، إلا أنني أعرف الصواب من

الخطأ، وعلى الرغم من كوني فاشلاً عظيماً، إلا أنني ذكيٌّ مرن العقل، أفهم الواقع فاسمع مني.

لا تغُرنّك الأثواب الطويلة، وكذلك اللحى للبعض من شيوخ الدين، لا تغرنك القلنسوات والعمامات، ولا يغرنك نور الإيمان لبعض الشيوخ الكبار على شاشات التلفاز، لا تدري، فلربما يكون المكياج والإضاءة هو ما تراه، ولو كانت الوجوة تشِعُّ طيبة، فخبثٌ كبير يسكن داخل صدور البعض.

دعك مني ولا تشح بوجهك عني، فبالرغم من أن كلامي لا يعجبك، إلا أنك تعلم بأنه واقع، فكم لاحظنا شيخاً جليلاً يُعجب الأمة وكل بلاد الإسلام، وبعد بسنوات نتفاجىء جميعاً بمحاولة إثبات فتوى إرضاع الكبير، فكما قال مولانا الداعر العظيم، بأنه يجوز للمرأة إرضاع كافة من يعمل معها في مؤسسةٍ أو شركة، لتغدو محرمةً عليهم أجمعين.

قم من هنا واذهب إلى دولةٍ عربيةٍ أخرى، لتشاهد مشهداً محبباً لعُبّاد المال والسلطة، لنساء يقمن بالصلاة جنباً إلى جنب مع رجال غُرباء، يرتدين "فيزوناتٍ" صاخبة، من النوع الذي يجعل الرجال يقعون في غيابات الجُبّ، يفرجنَّ أرجلهنَّ أثناء السجود، أمام رجالٍ يأتون لتلك الصلوات، رغبةً في مشاهدة انحنائات المؤخرات والأفخاذ.

لا تصدقهم عندما يخبرونك بأن المرأة نصف المجتمع، بل هي كل المجتمع وكينونته، وإن فساد المجتمع يبدأ بفساد امرأة، أم أنه كان فساد رجُل! دعيهم يعجبون بجسدك، أطلقي العنان لروحك وتنفسي، وكيف تتنفسين بقطعة القماش تلك، والتي يسمونها "بالحجاب"، ألم تتباهي بشعرك الجذاب أمام المرآة لساعات، أيعقل أن يُخبَأ هذا الجمال بحجة الدين، ألم يقل رب العباد في كتابه: (وأما بنعمة ربك فحدث) فبجمالك نعمةٌ يا سيدة الكائنات وأجملها، فحدثي جميع الخلق بالنعمة التي وهبها لك رب العباد!

لا تصدقي كل تلك الترهات، وكَلَ ما يصدر عن أنصار التطور والحضارة، حضارةٌ زائفةٌ كسُمٍّ مدسوسٍ في عسل، ودعني أثبت لك، فإن كانت الحضارة والتطور بالعُري، فإن من يخلع ثيابه كافة ثيابه ومن تخلع حشمتها واصلون لأقصى درجات التطور والأناقة والجمال، أوليسَ الإنسان خُلق بدون ثياب؟، ومع تطوره ستر نفسه، بناءً على كلامهم فإن نجمات الأفلام الخلاعية هنَّ أصل التطور والحضارة، هل يُعقل أن تكون امرأة تؤجر ما بين ساقيها مقابل المال مثالاً للرقيّ يا بلهاء!

فهذا والد تلك الفتاة وأخوها بقرونٍ من "الستاليس ستيل" اشترياها من سوق الجمعة، تخرج أمامهما متعطرةً، يكاد صدرها يشُق القميص من ضيقه، لينطلق "زرار" القميص كرصاصةٍ قاتلاً أحدهم.

- باي "دادي".

- باي "سويتي"، عالساعة وحدة بتكوني بالبيت، ما تنامي برا وما تخبريني مثل آخر مرة!

لا تستغرب، فالفتاة سرُّ والدتها، فكم من مرةٍ خرجت الوالدة "للمول" لتشتريَ أغراض المنزل، وثدياها يتقافزان داخل تلك "البيجاما الساتان".

هؤلاء هم المتحضرون يا بلهاء، عُبّاد المال والفرج، وأنا متأكد من أنك تستفرغين الآن في أقرب سلة مهملاتٍ بعد هذا الوصف القذر، وأنت، لا تبتئس مني على هذا الوصف اللا أخلاقي، فأنا رجلٌ لا أستطيع وضع "الروج والمكياج" للوصف ولا حتى للنص، جُلَّ ما أريده هو خضُ الحليب لأبيعك زبدةً صافية.

لقد قلت لك بأنني سافلٌ كبيرٌ، مررتُ على كل أنواع المُسكرات، بل وفروج العاهرات، والكثير الكثير من الخيبات، ولكنني أفهم، أفهم الواقع المرير وما يدور حولي، وما يسير في الخفاء.

أرى أنك بدأت تحبني، على الرغم من كل القذارة التي تطمرني، لا تلمسني، فربما أنقل لك فيروساً أخلاقياً، صعب العلاج، أرى أنك تريد المزيد من ترهات العالم القذر، لا عليك يا صغيري، سأقدم لك السُمَّ القاتل، فاستخدمه كما تريد، لتزيدَ من إيمانك بالله، أو لتزيدَ فسقكَ ودناءة تفكيرك إن وجدت، ولتتفكر أيضاً في الملذات التي تحرم نفسك منها على سجادة صلاتك!

هل تذكر إمام المسجد، شيخنا ومولانا وجليلنا، كبيرهم الذي علمهم السحر، وهل تظن أنه الآن يُعاقب في سراديب حكومية لا يعرف بها أحد، بل هو مكرَّم منعّم يعيش جنته في دنياه، فلقد ترقى وأصبح شخصيةً كبيرةً، معروفةً بجلالها وقدرها، يستشيره في الدين ودنياه، كل كبير وصغير وكل طفلٍ ملفوفٍ في السرير، لربما كان لدعاء الإمام وقعٌ في نفوس الناس وكبار البلدة، خصوصاً وهو ممسكٌ "بسُبحَته" ذات الأحجار الكريمة وجملته المشهورة دائماً:

- اللّٰهُمَّ اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين يا أرحم الراحمين.

على الرغم من أنه في غناء فاحش الآن، وعلى الرغم من أنه يمسح مؤخرته الصدئة " بالهايجين" والمحارم المعطرة، إلا أنه ما زال جائعاً، ولك أن تعلم بأن مَن لديه جوع نفسي، لن يشبعَ ولو وضعت أمامه أطناناً من أفخاذ البشر وحتى أفخاذ النساء.

وصَل لقدر من النفوذ بأن يصدر الفتاوى للعامة، بل وحتى فتاوىً لأهدافٍ سياسية، ففي زمننا، فإن مقياس تعيين بعض المُفتين، هو النفوذ وما معهم من مالٍ وجاهٍ زائلٍ زائفٍ، وبإمكانك قراءة اسم الإمام على ذلك "الشيك" المكتوب، ومبلغٌ ضخمٌ يزينه، ولا يمكنك أن تعد الأصفار، فالرقم كبير جداً، وكان الثمن مجتمعاً كاملاً، جيلاً بعد جيل، فتاةً بعد فتاة، ورجلاً بعد رجل، كان التنازل فتوىً فقط، لن أذكر لك شيئاً، وبإمكانك أن تبحث

وسترى كمّاً كثيراً من تحريفاتٍ تدحض المجتمع نحو القمامة، وترمي العادات والتقاليد إلى النسيان.

يا لبراعة هؤلاء الشيوخ، ففتوى صغيرة، وبضعُ كلماتٍ تُقال على شاشات التلفاز، أو على "إذاعة" وموقع "عهر دوت نت" كفيلةٌ بجعلهم أثرياء إلى يوم يُبعثون، وسيستخدمون المحارم المعطرة للأبد، لا تكن سخيفاً، فهذا ليس توفيقاً من الله لهذة الزمرة الحقيرة، بل هو حظّ العواهر، أولم تسمع "بأنّ حظ العواهر جواهر".

منذ متى كانت طريقة علاج الممسوس من الجنّ بتحسس أعضائه، منذ متى كان الترياق بأن تضع يدك على صدرتلك الفتاة المعشوقة من الجان، على حدِ قولك يا أعهر خلق الله ويا أقذرهم، منذ متى كان العلاج بأن تطلب من أهلها إخلاء الغرفة وما عليها أكثر من ملاءةٍ تُبدي أكثر مما تُخفي، فحسب ناموسك، يُقرأ القرآن على الأعضاء دون وجود ساتر.

وها قد اكتملت صورة التخلف والجهل، بشيخٍ نُمرود وأبٍ غبيٍ أبله، وفتاةٍ في الثامنة عشر من عمرها، تتم تعريَة مفاتنها كلّ أسبوع!

كيف كانت ليلتك ورأسك الكبير المليء بلحم الغنم يغفو على وسادتك بعد تحسس جسدها؟

كيف تجرأت على تدنيس كلام الله باستعماله بموقفٍ كهذا؟

كيف تجرأت على طهارة فتاةٍ ما زال صدرها ينضج؟

كيف تجرأت على شرف أبيها وإخوتها، بل وحتى زوجها وأبنائها المستقبليين، وهذا بالطبع إن تزوجت!

سلمى، فتاةٌ في الثلاثين من عمرها، مصابةٌ بالصَرع، تتعرض لنوبة صرع كلَّ ثلاثة أيامٍ على أقل تقدير، تُراجعُ الطبيب النفسي منذ أن كان عمرها ثمانية عشر عاماً، في آخر مرةٍ كانت متشنجةً في غرفتها ليلاً ولم يكتشف ذلك أحد، تم نقلها للمستشفى في الصباح، دخلت العناية الحثيثة، على كل حال، ليست تلك المرة

الأولى التي تدخل فيها المستشفى، وليس هذا هو السبب الوحيد، فقد كان الصرع أقل شيء تعانيه، لقد كانت تعاني من مشكلةٍ مع جسدها، وتكره كل سنتيمترٍ مربعٍ فيه، ربما كان جمال جسدها هو ما أوصلها لهذا الحال، لا بدَ لك وأن لاحظت بأنها ليست بمجنونة، ولا ممسوسة، وأن مشكلتها كانت تعرضها للتحرش، وفي بيت أبيها الجاهل، وأمها التي كانت تحكي لنساء الحارة تفاصيل علاجها وتعريتها، لا تستغرب، فجلد الذات أسلوب حياةٍ عند جهلةِ القوم، ألم تفكر في أنها تقوم فقط بنشر غسيل شرف ابنتها، والتي لا حول لها ولا قوة، أم أنها كانت تطلب فقط شفقة نساء الحيّ ليحزنوا على مُصابها الجلل!

أسبوع فقط بعدَ إخبار نساء الحيّ، حتى كانت الفتاة منبوذةً بين فتيات البلدة كلها، وبإمكانك رؤية الفتية الصغار يركضون خلفها في الحيِّ مطلقين عليها ما لك أن تتخيل من الألفاظ السوقية والرخيصة، وانظر هناك، مجموعة شبانٍ قذرين، ولاحظ ملامح

المجرمين في أعينهم، بل وآثار المشارط والسكاكين في أيديهم يتناولون "البيبسي" أمام الدكان، يخبرها أحدهم وهي على عجلَةٍ من أمرها بأنه شيخ، ويستطيع تعرية مؤخرتها ومعالجتها، أخبرها ذلك أمام أربعة شباب آخرين يضحكون أثناء ارتجاف يديها وبكائها وسقوط "كرتونة البيض" التي تحملها وتكسرها أمام الدكان.

يومان آخران، وكانت في غرفتها تقوم بشق رسغ يدها بشفرةٍ حادة، وانتهى بها المطاف في المستشفى، بعد أن قامت بختان نفسها وإلحاق ضرر طفيفٍ بصدرها باستخدام " مفك" براغٍ صغير، ولا تضع اللوم كله على الفتاة وأهلها الجهلَة خفيفي الرقابة، بل ضع جزءاً كبيراً من اللوم، بل واللوم كله، على قذرٍ جعلها تكره أعضائها وأنوثتها، ضع اللوم على الحقراء المتنمرين الذين تحرشوا بها أمام الدكان، فقط لأنها تعرضت لموقفٍ قذر لا علاقة لها بصنعه، موقف جعلها تكره جسدها، فتختن نفسها، وتشوه لوحةً خلقها الله.

لقد حُكم على الفتاة بالموت في الحياة، بجملةٍ واحدةٍ قالها الإمام، "لا حياء في الدين"، اعذر هذا الفاسق، فهو لا يعلم بأنّ الدينَ كلّه حياء، وهل ترى ما يحصل عندما يستخدم أحدٌ نصوصاً دينيةً موجودةً كانت أم من تأليف عقله؟

وهل ترى ما يحصل عند تسليم الأمر لغير أهله؟

وهل ترى ما يحصل عندما تعميك غريزتك عن دينك، وتتَبع دنياك؟

تلك الغريزة التي تعميك عن شرفك، تعميك عن مقاليد الرجولة، يا مولانا الداعر قليل الشرف والرجولة، يا لعهرك ويا لسخفي، ما زلت أناديك مولانا مع أنني أُتبعها بإهانة، أنا آسفٌ يا سفيهنا وحقيرنا، فكلب صيدٍ يتمرغ في الوحل أطهر منك يا صياد النساء.

خطاطٌ يكتب على قطعة رخام، تستنتج من النصِ بأن سلمى انتقلت إلى رحمة ربها، وهذا كان شاهد القبر، وبعد أن رمت نفسها من سطح منزلهم لتقع على أسياخٍ من حديد، اخترقت تلك الأسياخ جسدها الجميل، الذي كانت مشكلتها معه منذ البداية أن مسّته يدُ الشيطان وكلام الناس.

- الله لا يرحمها.

- ليش بتدعي عليها! البنت عند ربها.

- اسكتي اسكتي، مهي منتحرة سمعت، الله لا يسامحها، سوَدت وجه أهلها.

- ولك مشان الله حرام، احنا قاعدين في عزا البنت، حراام!

ما بدي أمها تسمع، شوفي حالتها كيف بتبكي الحجر.

خلص خلينا نسكت، هي بوزعوا مصاحف ورح نقرأ ختمة عن روحها...

حضر العزاء نساءٌ كثيرات لا تعرفهن، وبالمناسبة حضرت أم ملحم العزاء، واستنقصتها كافة نساء البلدة، بسبب "كحلتها" التي تكاد تلمس أذنها، من جهةٍ أخرى حضرت العزاء زوجة الإمام عابد النساء، وهي من قامت بتوزيع المصاحف لإتمام ختمةٍ عن روحها.

- ما بدي أقرأ، هاي منتحرة وما بجوز عليها إلا اللعن، وربنا رح يحرقها بجهنم!

- ولك رجعتي تحكي!!

خلص اقرئي أو مثلي بأنك بتقرئي عالأقل، أمها بتتطلع علينا.

هل ترى تلك المرأة التي تحسب نفسها الإله، تقوم بتوزيع الناس، من سيذهب للجنة ومن ستأكله جهنم محترقاً في سراديبها؟
وهل أنتِ الإله على عرش؟ وهل أنت مالكة السماوات والأرض وما بينهما؟
وهل أنت من سيأمر ملك الموت بقبضِ نفسه بعد قبضِ الجميع؟
بل وكيف تحكمينَ عليها بأنها من سكان جهنم، ولم تعانِ ما عانته، ولم تختبري كل ما اختبرته؟
عليك أن تعلم يا هذا، بأن من كان بيته من زجاج، فلا يرمي الناس بالحجارة، ولك أن تعلمَ بأنّ من فيه" مسلةٌ " تنخزه، هل تلك الفتاة في النار؟، وأنت في جهنم يا صهباء!
أرى أنك متضايقٌ يا صديقي، فأنا أطلق الشتائم على الناس باستمرار، ولكن لا بأس، فتلك الصهباء وضيعةٌ أيضاً، ولم

أحكم عليها على الهامش، فأنا أيضاً لست الإله على عرشه، ولا أستطيع الحكم دون دليل، وحالما تعرف من هي تلك الثرثارة، ستعذرني يا صديق.

هل تذكر الجزار الذي كان يطاوع أم ملحم على شرفها بالمال، إنها فقط زوجته والتي كنت أعاشرها معاشرة الأزواج أكثر من زوجها وفي بيتها، بينما كان زوجها مشغولاً يطاوع أم ملحم تارةً، ويغش الناس بوزن اللحم تارةً أخرى.

تحكم على الفتاة بالاحتراق في جهنم، بينما لها ولدان من صلبي، مسجلان باسم الجزار في ذات الأحوال المدنية الحكومية، يساعدانه في تقطيع اللحم للزبائن وأثناء مروري من الحارة ألقي عليهما السلام يومياً.

طُرِقَ الباب، باب مكتب الإمام بعد أن أصبح رجلاً صاحب نفوذ.

- مولانا... في شيخ برا طالب يشوفك.

- مين طالب يشوفني يا حاجب؟

- بقول اسمه الشيخ أسامة، وبده يشوفك ضروري.

- هاا... أسامة، دخله بسرعة لعندي يا حاجب!

بإمكانك الآن رؤية مشهدٍ دراميّ للصداقة، لصديقين حميمين يلتقيان بالأحضان، وبين تقبيل "الشوارب واللحى":

- طمِني عنك يا أسامة، كيفك يا رجل، زماان ما شفتك، متى أخلوا سبيلك من السجن؟

- من أسبوع طلعت مولانا، وأنت عارف قديش أنا مظلوم وبريء، ست سنوات ضاعوا من عمري هباء!

- بعرف يا أسامة، بعرف، تفضل ارتاح!

- الوو، يا حاجب، فنجانين قهوة وسط لو سمحت.

- مولانا، أنا تقطعت فيني السبل، وبدي تشغلني أي إشي عندك، وأنت عارف ما حدا راضي يشغلني بسبب اللي صار.

وأنت يا مولانا عارف إني مظلوم، الله لا يسامحك يا أبو عبادة!

وسريعاً كانت ردة فعل الإمام بأنه سيعيده لعمله، خادماً ومؤذناً لبيت الله سيرجع، ولكن لمسجدٍ آخر، وسط امتعاض من الشيخ أسامة طالباً العودة للمسجد القديم، كيف لا يستطيع الإمام، وهو رجل صاحب مركزٍ مرموق، يقوم بدعوة بعض مسؤولي البلد جائعي البطون بين الحين والآخر، تتخللها الإكراميات والشيكات تحت الطاولة، تتناولها الأيدي القذرة وسط جوٍ من المحسوبيات "والواسطة".

تناقلت الألسن الترهات، ولا بدَ لك أنْ لاحظتَ صخباً في كل البلدة، صخبٌ بدأ بعد إخراج جثة سلمى من منزل والدها باتجاه المسجد للصلاة عليها، مشهدٌ مبتذلٌ لأبيها وإخوته، يحملونها ويغطونها من كل الجهات، بغطاء ثقيل كأنه فرو دبٍ كبير، وحتى

أخيها صاحب الستة عشر عاماً، يركضُ بين أرجل الجهلاء، وبحركةٍ بارعة ليتذكرها والده حال انتهاء المراسم، يقوم بشدِ الغطاء أيضاً ليغطيَ طرف جسد أخته.

مليء بالشرف والعفة والطهارة، هناك سؤالٌ ربما يخطر ببالك أم لم يخطر، يا دعاة الشرف والعفة، يا صناديد الدين، أخوات من نراهنَ في الشوارع متبرجات، بنات من اللواتي يخرجنَ بالتنانير الضيقة والفيزونات؟

من تلك التي ترتدي بنطالاً ضيقاً مكتوباً على مؤخرته" **love me**"؟ لا بأس، فذاك شابٌ شاذٌ من سكان البلدة المجاورة يرتدي كعباً عالياً، ولم يكتفِ بعبارة "**love me**" مكتوبة بالخيطان على مؤخرته، ألا تستطيع القراءة؟ سأقرب لك الكاميرا أكثر، إنها"**fu** ** **me**".

وبعد هذا المشهد، أظن أنك ستعذر تلك الفتاة لو قليلاً، ومع أنها ساقطةٌ ربما تتبع الموضة فقط، لكن على الأقل، فإن فطرتها تعلمها بأن تكون فتاة، ودافع الجمال في بيت زوجها أو شوارع البلدة، سببه فطرتها في أن تكون جميلة.

دعك من هواة الحضارة مرةً أخرى، قوم "الأوبن مايند"، سيملؤون دماغك بكلام كثير.

- ملابس المرأة ليست دليلاً على شرفها.

- هي تضع العطر من أجلها وليس من أجلك.

- في مكان عملها وجامعتها، تُضاحك الرجال وتسامرهم، فلا تكن متشدداً داعشياً فهي اجتماعية فقط.

- إنها تسهر مع صديقاتها في المقهى للثانية بعد منتصف الليل، فهي امرأة حرة، واعية، ناضجة، تعرف ما تفعل.

- هي في السابعة والعشرين من عمرها، تساكن ابن صاحب والدها، في دولةٍ أجنبية فماذا في ذلك؟

وصدقني بأن الأمر تعدى ذلك بمراحل، فبإمكانك رؤية بعضاً ممن طلبن اللجوء من دول الحضارة والتطور، يعترفنَ بمثليتهنَّ الجنسية في بثٍ مباشرٍ على أحد مواقع التواصل الاجتماعي وكان"face book "، منهن من تتعرى بالكامل أمام الكاميرا، بل وتنشر ذلك أثناء استهزاء منها لكل العادات والتقاليد والدين، والذي منعها من فعل ذلك وهي في بلدها الذي كانت مسلمةً فيه بالهوية فقط، وبضغط من أهلها والمجتمع، بلد تحكمه العادات والدين حقيقةً كان ذلك أم مجازاً.

ولربما كنت جالساً، تتفقد" الواتس اب" على هاتفك، ووصلك رابطٌ لفيديو على الفيسبوك، قد انتشر قبلَ فترة، وعلى الـ "group" الخاص بالمتقاعدين أمثالك، رأيت فيه امرأة، ولا بدَ لك أن عرفت جنسيتها من لهجتها الظاهرة، تقيم في إحدى الدول الأجنبية، تتحدث بأنّها تمتلك جسدها الفاتن، تعرَت على جميع المواقع، فارضةً شخصيتها على جسدها، معلنةً بأنّ لا أحد يمتلك

تلك السلطة غيرها، تنادي أمام العلَن، بأنها مارست الجنس مع رجلٍ أوروبي يمتلك عضلات بطن جذابة، وبأنه قد أعجبها فسلمت له جسدها بامتنان.

دعك من مجتمع العولمة وتجَار الدين، دعك من الكبت الذي تتعرض له النساء في مجتمعاتنا وحتى الرجال، ودعك ممن يُطَبِعون مع غُزاة الفكر أصحاب المذهب الشيطاني اللئيم، هل كل النساء ضحايا لكل ذاك؟ هل مُبَررٌ لي بأن أكفر وأزندق، لأن كل العالم كفر وزندق فقط؟

إن صاحب المبدأ والدين يبقى على إيمانه، فإن صاحبة "الجلباب" تبقى متلحفةً بجلبابها، حتى وإن تعرت كل نساء العالمين، وإن صاحبة العفَة والطهارة تبقى على عفتها ولو سنحت لها الفرص لتبيع الشرف، وإن وضعت بين ألف رجل، وإن من نشأ في عبادة الله بقلب صادق لا تشوبه شائبة، سيبقى عابداً ناسكاً وإن أغراه عُبّاد المال بكنوز سليمان، ولتعلم على سبيل التعميم لا الحصر

بأنّ زانٍ مريض النفس، سيزني بنفسه إن أُتيحت له الفرصة، ولم يجد مَن يزنِ به.

وبإمكانك متابعة " اليوتيوب" للحفاة العراة، ومَن يتطاولوا في البنيان، وهم يهتفون لإسرائيل وشارون، يشيدون بجهود دولة المحبة والسلام بجهودها في المحافظة على سلام شرقنا الأوسط، وبأنّهم ليسوا فقط شعب الله المختار، بل هم شعب الله المسكين، والذي تكالبت وتطاولت عليهم الأمم، بمسلميها ومسيحييها وملحديها.

فهذا "أدولف هتلر" صاحب الأسطورة الزائفة لمحرقة اليهود، والتي أُحرِق من خلالها ملايين اليهود، لم يكن في نظرهم قد أحرق جثثهم فقط، بل أحرقهم أحياء، يلفظون أنفاسهم الأخيرة بينما تتصاعد أدخنة جلودهم ولحومهم النتنة.

ألم يخبرك أحدٌ بأنّ تلك ما كانت إلا إشاعةً لكسب تعاطف العالم أجمع، لتسهيل توطين اليهود في فلسطين، أم أنّك لا تقرأ التاريخ

ولا تميز الحقائق؟ أم أنّ كلّ ما تقرأه مزيفٌ في هذا العالم القذر؟ فلتعلم يا صاحب الأفق الضيق بأنّ التاريخ غالباً ما يكتبه المنتصرون!

كانت تحلب النعاج صباحاً، وبعدَ العصر أخبروها بأنّ البلاد قد تطورت وانحنت أمام سطوَة الحضارة، فخلعت "سروال الخيَش" الذي كانت ترتديه واستحمت "بليفةٍ" ناعمة ورمت حجر البازلت الذي كانت تزيل به بقايا الجلد الميت عن قدميها، بعد مشيٍ لساعاتٍ خلف الجمال والنعاج، كانت تضع السماعات وعلى وقع أصوات الدواب تسمع لكاظم الساهر:

- ترقص... ترقص.... ترقص حافية القدمين.

وبعد أن سحبت شعرها باستخدام المكواة، لبست" تي شيرت" ضيق الملامح، وبنطال أخيها الذي في الصف السادس، لا بأس، سيكون مظهره كالفيزون وبعد اجتماع كل أفراد العشيرة، لإدخال فخذيها البنطال، كان بإمكانك رؤيتها، ترقص "التويرك" في حفلٍ ماجن، وفي أحضان شابٍ يقوم بالاقتراب من مؤخرتها الممتلئة، لا بدَ لك أنك لاحظت أنّ القناة التلفزيونية التي تعرض لك هذا

**الحفل، تحمل تردد قناةٍ دينيةٍ سابقة، كان همها التلاوة، وتعليم الأطفال أحكام التجويد وقصص الأنبياء.**

سريعاً سريعاً، شرشفٌ كبير أبيض يغطي حفرة القبر، بداخله جثة سلمى، وعمُها الأصغر صاحب البنية الحديدية يضع الجثة بين صفيحين من الحجر، ولقد همس بأذنها قبل وضع صفيحٍ ثالثٍ فوقها....

- الله لا يرحمك... سَودتي وجوهنا يا فاجرة.

ولقد صاح شهمٌ ما من بعيد....

- سدَ المكشوف سدُه....

فقام القوم بسدِّ النور على ما كشِف من طرف القبر بالشرشف، وانهال التراب متراصاً متسارعاً يطمر القبر، بل ويطمر سلمى التي ارتاحت بجوار ربها من جهلة القوم وكذابيهم مُدعي الشرف.

- آجروا يا إخوان.... آجروا، هاتولي شاهدَ القبر.

أثناء ذلك كان الإمام يُشبك يديه، خائفاً من أهوال استيقاظ الشرف الذي مات قبل سنين، ومن تحول الجهالة باتجاة فهم مجريات ما حصل، وخصوصاً أنه كان بطل "السيناريو" الذي

أعدمت فيه الفتاة نفسها، وها هي الشائعات ما زالت تسيطر على أفواه نساء البلدة، ولا يزال يُرش على سلمى وقصتها ما لذَّ وطاب لهن من البهارات التي تشفي غِلّ المرضى النفسيين، وقد تطور الأمر للرجال، فقد أصبحوا يتهامسون بأنها زانية، فاجرة، لا تستغرب فالرجل يصدق ما تريده زوجته، وتسقيه ما تسقيه، وتطلب منه ما تطلب، قبل أن تسمح له بأن يتفخذها، وفي البقالة ذاتها، والتي وقع من سلمى طبق البيض أمامها، كان بإمكانك سماع الكثير...

- سمعت أنها كانت تروح عالجامع بعد صلاة العشاء وتكشف صدرها للإمام.

وهذا صوت البقال يرد عليه باستغرابٍ لوقاحة الفتاة، والتي كانت متوارية خلف التراب...

- سمعت أنها كانت تؤشر من سطح بيتهم لشباب الحيّ، صح كانت تؤشر لك يا "ملحم"؟

- آه والله صحيح يا عمي، وكانت ترميلي ورق مكتوب فيه حبّ وغرام وحكي عيب أحكيه، على كل حال الله يرحمها.

ناولني كيس الحنطة خليني ألحق أرجع عالبيت.

هل كانت تؤشر لك من على سطح بيتها يا ابن راقصة الأئمة؟ وهل فعلاً كانت ترمي لك برسائل محتواها طلب الزنى الصريح يا صاحب الرأس المليء بالقمل؟ فلتأخذ كيس حنطتك ولتركض راجعاً للبيت فأمك"أم ملحم" تعد وليمةً كبيرة، يتخللها الرقص الشرقي بذات الفستان الأحمر، طلباً لرضى الإمام ومعه أصحاب أموالٍ قادمين من إحدى بلاد الحفاة العراة ذاتها.

وفي ذات الليلة، لم يخيّب الإمام ظنك، فقد دخل بيت أم ملحم ومعه ثلاثة شيوخٍ قصيري الثوب، مع صعلوك حقيرٍ آخر، ليصب النبيذ المعتق للبقية ويقوم بتقديم الطعام والتسالي لكبار الشخصيات والحفاة، أثناء تفرجهم على رقص أم ملحم بعد أن تعرَت بالكامل، ووضعت خصلةً من شعرها على عينيها، فلا تدري

أهو الخجل، أم هي حركة إثارةٍ وإغراء فقط لذوي العمامات والقلنسوات.

وإنني لأرى عينيك على صباب النبيذ المغفل، يتراقص حول أم ملحم، يجمع الدولارات من حولها، والتي يرميها قصيروا الثوب من الحفاة العراة، يدسُها في جيبه، ليتقاسمها بقسمةٍ غير عادلةٍ مع الإمام صاحب الملهى الليلي، وأم ملحم رأس مال الإمام، إنه فقط الشيخ أسامة عاشق مؤخرات الأطفال والظاهر أن جمع المال حول أم ملحم وهي تتراقص عارية، هو وظيفته الثانية.

آيةٌ كريمة، كان بإمكانك سماع الإمام يتلوها في اليوم التالي أمام جمعٍ كثير، وسط جوٍّ إيمانيٍّ من الطراز الرفيع، ولا تتفاجَأ من وجود الحفاة العراة ذاتهم بأثواب بيضاء طويلة، يجلسون مستمعين بإمعان، شبقين لانتهاء الخطبة، منتظرين أن يُخيم الليل على العباد، وتعمّ العتمة كل شيء، إلا أثداء أم ملحم كبدرين متجاورين، نورٌ على نور، وشفاءٌ من أسقامهم النفسية والجسدية.

ذئبٌ بشري واحد، وامرأة محتاجةٌ لإطعام أطفالها، فراشها باردٌ جداً كالجليد بعد وفاة زوجها الشاب، ليست تلك الصورة تنطبق على كل النساء العفيفات رغمَ الحاجة، ذئبٌ وامرأة ضعيفة أمام أغراض بيتها، كافيان لافتتاح أول بيت دعارةٍ في البلدة.

لا تُعَمّم كلامي، ولا تُثرثر بلهوٍ فارغٍ، فأنا أعلم أكثر منك بأنّ هناك نساءً حرائرَ، لا يبعنَ أنفسهنَّ ولو بوزنهنَّ ذهباً، ولكنَّ الكلامَ موجهٌ لزمرة العهر والفسوق، وضعاف النفوس بسبب الحاجة، وإن من يخون ربه في الخفاء، فإنه سيبيع شرفه، سيبيع دينه، وحتى آراءَه ومعتقداته، وإنّ من خانت ربها لأيّ سبب، ستبيع كل ما لديها، وستخون زوجها، ولن يعِزَّ عليها ما بين ساقيها.

إنَّ من يضعف في المرة الأولى، سيهون عليه الأمر في المرة الثانية والثالثة والعاشرة، وأم ملحم قد ضعفت ببطءٍ أمام نقود الإمام

ودولاراته، وأعطت له ببطءٍ أشدَّ ما لم تعطِه حتى لزوجها الذي دثرته الأيام ودثره قلبها الذي يمتلئ بالصدأ.

في بداية الأمر، لا بدَ وأنك تعلم بأنها كانت ضحية جهل وغباء ونقص وفقر، وباب من أبواب الرزق الملفوف بالحرام، ولكنّها لم تعد الضحيَة حالما تجانس قلبها مع المعصية، بل واستلذتها، فمرّت على كلِّ أنواع الرجال، الطويل والقصير، الغني والفقير، المُشعر والأقرع، وكلهم ممن يدفعون بسخاء لا يدفعونه في الصرف على عائلاتهم ربما، تآلف قلبها والمعصية، فغدت فاجرةً سافلةً، حقيرةً ماكرةً، تسعى لإمتاع فرجها وجيوبها.

أم ملحم ليست شخصيةً واحدةً بحد ذاتها، بل هي ملايين النساء، تمثل اللواتي تحولن من ضحايا مجتمعٍ إلى عاهرات، رائحة أخلاقهن كرائحة الجيفة على الرغم من روائح العطر الفواح، الذي زنَت وزنى كلّ من اشتمه منها في الشارع بشهوة، متخيلاً دفعه التخيل في أن يكون "الزبون" التالي على قائمة الانتظار في فراشها.

لم يتوقف الموضوع على هذا الحد، فأم ملحم امرأةٌ اجتماعيةٌ مع نساء الحيّ والبلدة، لم يمنعها عملها الليلي من تأدية واجباتها، فهي تشارك وترقص في الأفراح والليالي الملاح، وتحزن في الأتراح، وإنك لتذكر بأنها حضرت عزاء سلمى بلياليه الثلاث على الرغم من أنّ "كحلتها" لم تكن تفارق عينيها، لا فرحاً ولا حزناً.

الجارة الجديدة، في المنزل المجاور لمنزل أم ملحم، أرخص منزلٍ استطاعت استئجاره في ظل غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار، وعلى الرغم من السمعة السيئة للحارة مترامية البنيان، وعلى الرغم من أنّ سمعة أم ملحم أصبحت أدنى من لعاب كلبٍ على قصعةِ لحم، لحم الرجال وأموالهم، إلا أنّها كانت شريكة الإمام الحسن السمعة في الدعارة، فكيف يستطيع صغار القوم أن يخبروا الشيخ الإمام بأنّ النار قد أكلت ثوبه، وكيف يخبرون السلطان صاحب النفوذ بضرورة تغطية قفاه.

ينظر الإمام نظراتٍ متقنةً يجيدها الرجل في اقتناص فتاةٍ إلى فراشه للجارة الجديدة، كصيدٍ جديدٍ واستثمارٍ قويّ، بجسدٍ فاتنٍ كأنّه المهر يركض في الحارة بين البقال والخبّاز والجزار، زوجها كان نجاراً يبحث عن دكانٍ وعدَةٍ جديدة، ليبدأ في كسب رزقه ورزقها ورزق الأبناء المنهمكين للتعرف على أطفال الحيّ، يلعبون "الغميضة" وكرة القدم المصنوعة من الجوارب البالية.

كان رجلاً جاداً، يأكل ويطعم أطفاله مما تصنع يداه، بارعاً في صنع الكراسي وغرف النوم الفاخرة، وبعد أن عرف الإمام بأن النجار يبحث عن مخزنٍ ليكون مكان عمله، همَّ بالذهاب إليه والترحيب، ومع نظرات الإمام لزوجة النجار مراراً وتكراراً، زاد إصرار الإمام على ما سعى إليه من اغتصابٍ للشرف والكرامة وعفَة زوجة النجار، جارتها لأم ملحم، وبعد صلاة العشاء، وأمام المسجد، لبس النجار حذاءه البالي، وعلى عجلٍ ومعدةٍ فارغة، يريد الذهاب لزوجته وأطفاله، ليتناول طعام العشاء معهم، بعد بحث ليومٍ كاملٍ عن أسباب الرزق، وإيجاد المأكل الحلال.

- يا ابني...يا ابني، على مهلك شوي، رجليّ بوجعوني ودوبني أمشي عليهم...

- خير يا شيخ، شو في؟

- خير يصيبك يا ابني، أنت جديد في الحيّ، وسمعت إنك بتدور على مخزن لتفتح فيه منجرة...

- مزبوط يا شيخ، بدنا نسترزق ونطعمي الأولاد.

- يا ابني كونك جديد في الحيّ ولسا ما عندك شغل، وشغلتك أصلاً نجار، بدي تفصل غرفة نوم لجارتكم أم ملحم، حرام، عفش بيتها كله قديم، أنا وأهل الخير بدنا نجدده، ونرمم جدران البيت كمان، الشتا هاجم على بكير السنة، وخايفين بيتها ما يتحمل.

هي بتستفيد وأنت بتستفيد، وبتترزق بقرشين لبين ما الله يفتحها عليك.

- بارك الله فيك يا شيخ، الله يوفقك ويطول عمرك.

- وحسابها بتوخذه مني أنا، مش من أم ملحم، وهاي مبلغ اعتبره "عربون".

- اتفقنا يا شيخ، الله يفتحها عليك، وخلال أسبوع رح تكون جاهزة إن شاء الله.

- إن شاء الله، وأنا بكرة رح أروح أخبر أم ملحم مشان تفرح...

يمشي النجار مبتسماً، يدعو للإمام بالبركة وطول العمر، وزيادةٍ في الرزق ومحبة الخالق، بينما ينظر الإمام بنظرةٍ ساخرةٍ تملأ الدنيا شهوةً وغريزة، بل ويكاد لا يستطيع إخفاء تلك النظرة، وكان الشيطان يقف على زاوية الحائط متكئاً، يراقب الإمام ويتعلم منه المكائد والإغواء.

يُطعم النجار أطفاله وزوجته بيديه، يحنو عليهم، وبعد أن تناولوا طعام العشاء، كان النجار وزوجته يتسامران على فراش الزوجية البسيط وعلى الرغم من أنّ الفراش كان رقيقاً، يكاد يتساوى مع بلاط الأرض، وعلى الرغم من جو التواضع وانعدام التكلف فيه، لقد كانا جميلين حقاً، كزوجين حالمين، جُلَّ ما يريدانه هو العيش بالستر والعافية، وإطعام الأفواه الجائعة التي لديهما، يصنع للناس أفخر غرف النوم، ومن خشب البلوط والزانْ، إلا أنه ينام على فراشٍ رقيق، برودة البلاط تصل لجسده من خلاله، من الصعب أن تكون بائعاً للسعادة ولا تمتلكها أيها الفقير المُعدَم.

إنّ هذا المشهدَ يتكرر كثيراً في أيامنا هذه، فهل رأيت تلك العجوز التي تمسك باقة الورد الأحمر على إشارة المرور، وتكادُ تقبّل يدك لتشتري منها ورداً لأمك، لزوجتك، لحبيبتك، أو حتى لعاهرتك!

إنّها أيضاً تمتلك الحزن وتبيعك السعادة، تلك السعادة التي تبتعد عنها ألف سنةٍ مما يعدون، وهل ترى ذاك الطفل"التركماني" صاحب العيون الخضراء، والشعر الأشقر ذو الخصلة البيضاء، يبيعك شموعاً وبالونات، من أجل عيد ميلاد ابنك الذي من عمره تقريباً، ابنك الذي ما زال لا يستطيع الدخول للحمام وحيداً خوفاً من" عمو الحرامي"، والذي يفضل التبوُل على بنطاله بدلاً من المشي في ممرات المنزل المخيفة ليلاً.

هل تظنُ أن ذلك الطفل التركماني يعرف ما تعنيه كلمة "عيد ميلاده"، هل تظنه يعلم ما تعنيه كلمة احتفال، ربما حتى لا يعلم

ما تعنيه كلمة حمّامٍ أصلاً، ولا تسألني كيف يقضي حاجته، راقب القطط وستعرف.

- الله يسعده ويعطيه ليرضيه إمام المسجد، جبَر خاطري اليوم وسلمني شغل، ورح أفصل غرفة نوم لجارتنا أم ملحم، أهالي الكرم بجددوا بيتها قبل ما يهجم الشتا....

تحدث زوجته نفسها بعد أن لفت ظهرها باتجاهه:

- الإمام! صاحب اللحية اللي كان يتفحص جسمي اليوم في الحي بدون ما يستحي على حاله ولا على دينه.

- ليش لفيتي ظهرك، غيرانة عليّ من أم ملحم، يا بنت الحلال أنا مستحيل أخونك وأحب غيرك، بعدين لا تصدقي كلام الناس على المخلوقة إلنا أسبوع ونص ساكنين جيرانها وما شفنا عليها إشي، وما تنسي، إن بعض الظنّ إثم.

- معك حق، وأنا ما بشك فيك، بس أنت المهم دير بالك على حالك، إنت عندي بالدنيا، أنا بحبك وبخاف عليك.

توكلي على الله ونامي، عندي صحوة بكير، بدي أروح أشتري الخشب، مشان أبلش بتفصيل غرفة النوم لأم ملحم.

- ماشي حبيبي، وعقبال ما نقتدر ونفصِل غرفة نوم إلنا، ياا رب. ما بدك تحكيلي كلمة حلوة قبل النوم!

- يمة، كلهم بنادوني ملحم ابن الرقاصة.

ملحم، شاب مراهقٌ يسكن مع إخوته وأخته في منزل جدِهم في آخر البلدة، فهم الآن ليسوا مراهقين، منذ أن بدأت عيونهم تتفتح على الحياة، بدؤوا بطرح الأسئلة على والدتهم، والتي بدرها أخذتهم ليعيشوا في بيت جدهم، ربما ليعيشوا على ذكرى والدهم المتوفى، وربما ليخلو الجوُ من طرح الأسئلة على أم ملحم والإمام، فهم لم يعودوا أطفالاً ينامون باكراً والشوكولاتة في أيديهم بينما يقوم الإمام وغيره بمضاجعة والدتهم في الغرفة الأخرى، وعلى الرغم من ذلك، كان أطفالها يزورونها بين الحين والآخر، وكان الإمام متفهماً لذلك، ففي يوم زيارة أطفالها لها، فلا عمل في الدعارة، وعلى الرغم من أن بعضَ الأفواه كانت تثرثر على شرف أم ملحم، إلا أنّ لا أحد أثبت عليها ما كانت تشارك الإمام به، ولربما كان السكوت خوفاً من سطوة الإمام صاحب النفوذ، أو ربما لأنّ سكان البلدة فقط كان جُلَّ تفكيرهم هو الطعام والشراب والنوم، النوم في فراش

زوجاتهم تارة، وفي فراش أم ملحم تارةً أخرى، جالسون في حضنها، بعضهم ناتفون لذقنها، نفسهم من يتفوهون بالترهات في نظرها، قد ناموا على جسدها مراراً وتكراراً، ويمكنك أن تشتمَّ منهم رائحة مكر الرجال مع بعض روائح الجنابة أثناء خروجهم من منزلها.

فهذا فلان يتكلم لزوجته عن فلانٍ آخر، وكيف أنه شاهده خارجاً من منزلها يتصبب عرقاً، لك أن تعلم بأن المتكلمَ والمتكلَم عنه قد تصببا عرقاً تحت لحاف أم ملحم الدافئ، وبإمكانك رؤية الزوجة سعيدةً تعتقد بأنّ زوجها أنظف وأشرف رجال الكون.

أن تكون عاهراً فتلك مصيبة، وأن تكون عاهراً كاذباً متسلقاً تظهر بثوب العفة والطهارة، مخفياً القُبح وقلة المروءة والرجولة والشرف فإنّ المصيبة أعظم.

قُم بفضح نفسك دائماً قبل أن يفضحوك، اصطدم بذلك الجدار بكل قوتك، إما أن تموت، أو أن تكون البطل الذي هزم الجدار،

فهذه أم ملحم، تبكي بحرقةٍ تجيدها النساء المظلومات، بين يدَيّ عمها والد زوجها المتوفى، وبعد أن حصل ذلك وإلى الآن، لم يجرؤ أحدٌ على التكلم بسوء على أم ملحم وشرفها الداني من بلاط الأرض، حتى وإن رأوها مفرجةً ساقيها في منتصف الحيّ يوم العيد.

- والله والله يا عمي كان الإمام يجيبلي مساعدات من أهل الخير.

بدي تاخذلي حقي يا عمي! عالأقل مشان ابنك المرحوم.

ثلاث جلساتٍ في المحكمة، كانت كفيلةً بالحصول على تعويضٍ ضخم، حصلت عليه أم ملحم من صاحب الإشاعة وزوجته، قاما ببيع منزلهما لدفع التعويض للشريفة العفيفة، وهكذا قامت أم ملحم بتربية كل سكان البلدة، قطعت دابر الكلام، بل وحصلت على مبلغٍ يكفيها لشراء النبيذ المعتق لزبائنها المتميزين صارفي العملة، الحفاة العراة، هل تتذكرهم، الذين يتطاولون في البنيان.

حصلت أم ملحم بعد ذلك على حصانة، وأي حصانة أقوى من الخوف من دفع التعويضات جزاءً لقذف المحصنة، أم ملحم وفرجها العفنِ مكب النفايات.

- ما عنا قهوة، بصير أعملك شاي؟

- إذا بتحطي عليه "هيل" وبتستعجلي شوي بكون كثير ممتاز، بدي ألحق أروح أجيب الخشب وألحق أبدأ بتفصيل غرفة النوم.

- حاضر حبيبي، ولا يهمك.

- وينك.... ما تنسي تحطي إصبعك بالشاي، بحبه حلو زيادة.

ابتسمت له بحب وحنان وخجل، ينظر لها نظرةَ المتلهف، كلما رآها يحبها أكثر، كأنما يراها للمرة الأولى، ولو أنك رأيت عيونهما كيف أنها تتكلم من فرط المحبة والألفة، وعلى الراديو القديم:

- يسعد صباحك يا حلو... يسعد مكان بتنزله.

- الله على فيروز ما أجمل صوتها ساعة الصبح، والله على هالشاي ما أحلاه، حاطه إصبعين فيه مش واحد يا غشاشة؟

تضحك زوجة النجار بدلع، وترمي رأسها على كتف زوجها، الذي أفاق من سكرات حبه، وارتشف آخر رشفةٍ من كأس الشاي، وقد

قام مهرولاً ليلحق ببائعي الأخشاب، ونظرات زوجته مودعةً له بالتوفيق والتيسير.

وبكامل نشاطها وحيويتها، أعدت الإفطار للأطفال، وأيقظتهم لتذهب بهم وتسجلهم في مدرسة البلدة، البلدة التي أصبح محور حديث رجالها وصبيانهم حتى هو رؤية زوجة النجار.

- شوف خصرها ما أحلاه، شوف مشيتها، معقول هي بتمشي هيك ولا مشان تلفت نظر؟

- اسكت، سمعت إنو زوجها نجار، وبشتغل بخشب الزان والبلوط، فما رح يعجز عن راسك إذا عرف إنك بتتغول بمرته!

- اسكت اسكت، الحلوة جاية باتجاهنا.....

- مرحبا عمي، ممكن لو سمحت تحطلي كيلو سكر، ونص وقية شاي و.....

عمي.... يا عمي، بشو سارح؟

لقد كان سارحاً في عينيها وشفتيها، وأثناء الكلام:

- آه يا عمي، قولي، شو كان بدك؟

- حكيتلك بدي سكر وشاي، وبدي علبة حلاوة للأولاد، بس ما تكون غالية الله يجبر عنك، ولادي زمان بطلبوها.

- ومن متى الحلاوة بتشتري حلاوة؟

اشتعلت النيران في صدرها، وبعد أن بصقت في وجهه ونثرت كيس السكر عليه، ابتعدت مسرعةً صارختةً غاضبة، بأنها ستخبر زوجها بما حصل وعادت لبيتها منهارة، تبكي بحرقة، ومع أنها مثلت القوة أمام القذرين، إلا أنّ ما حدث، قد آلم نفسها وأضعفها، ودفعها للتفكير في قذارة هذه البلدة وأنها قد ندمت على استئجارها لهذا المنزل الرخيص.

وبعد أن عاد النجار لبيته، وعلى أنغام أم كلثوم، كان قد بدأ بقشط الخشب وتطويع الحديد، مداعباً نفسه بكأس من الشاي "الخمير"، وبإمكانك ملاحظة أن زوجته لم تخبره بشيء، ومع أنه

قد سألها ما بها مراراً، إلا أنها أخبرته بأن مزاجها معكرٌ فقط، وبينما هو منهمكٌ بالقياسات والحفر على الخشب.

دخلَ الأطفال متراكضين بعد أول يومٍ دراسيٍّ لهم، ولم يلبثوا أن جلسوا قليلاً حول أبيهم، يلعبون بالبراغي والمسامير، ومنهم من أوقع قطعة خشبٍ جاهزةٍ للتركيب، نهرهم والدهم بشدةٍ مع أنهم محبوبوه وقطعٌ من قلبه الحاني، فهو رجلٌ متفانٍ يعشق العمل، فوقت العمل للعمل فقط، ووقت الأطفال للأطفال، ووقت الزوجة الجميلة هو مِلكها الخاص، وبينما جلس الأطفال هادئين، بعد التوبيخ وهم يتضاحكون فيما بينهم بالخفاء، خوفاً من أبيهم الجاد، كان النجار وزوجته يضحكون على ضحكهم الماكر، الضحك الذي يخرج من أفواههم تارة، ومن أنوفهم تارةً أخرى.

طُرقَ الباب، فقام الأطفال دفعةً واحدة، يتدافعون وتوبخهم أمهم في ظل قلقٍ تراه منها خوفاً عليهم.

- مين عالباب يا ولاد؟

- أنا، أنا .... جارتكم أم ملحم.

- أهلاً، أهلا وسهلا جارتنا، تفضلي فوتي.

- هيني فايتة بدون ما تحكيلي يختي!

تتسابق هي وكحلتها، حتى وصلت للزوجين، تكاد عيناها تضيء كقطة في الليل، فاليوم هو دور العدسات الزرقاء، وقبله كان للخضراء، إلا أن ذات الرموش الاصطناعية الطويلة تزيّن عينيها ليلاً نهاراً، حتى في موعد نومها لا ترتاح منها، فليس للإمام وزبائنه موعدٌ محدد، وضعت لها زوجة النجار كرسياً، جرَته جراً ولم تحمله، وقد نجحت في إصدار صوتٍ أثار انتباه أم ملحم، فأزاحت عينيها عن صاحب اليدين القويتين.

- كان لازم آجي أرحب فيكم من أول ما سكنتوا، بس معلش كنت مشغولة شوي.

صحيح، إمام المسجد اليوم مر لعندي وخبرني بأنك بتفصل غرفة نوم إلي، وشايفة إنك نشيط وبلشت فيها ما شاء الله....

- مزبوط يا خانوم، وإن شاء الله....

- لا، لا.... ما تحكيلي خانوم، اسمي أم ملحم بس.

بعدين خليتوني أنسى الله يسامحكم، عاملة معجنات وجبتلكم صحن، صحة وهنا إن شاء الله.

- ما كان في داعي تغلبي حالك جارتنا.

- ولو، ما فيها غلبة، حق الجار عالجار، ما بكفي مغلبة جوزك وبشتغل مشاني!

يالله خليني أقوم أنا، تأخرت وصار لازم أروح عالبيت، وصحة وهنا عليكم يا رب.

- والله ما بتقومي، هي رح أحط إبريق الشاي عالنار.

- والله تأخرت وعندي شغل بالبيت و.....

- حلفت ما بتقومي، بدك تشربي شاي معنا.

- آه جارتنا، والله ما بتقومي، ما بكفي جايبة معك أكل إلنا.

- لا غلبة ولا شيء، خلص رح أقعد أشرب الشاي معكم.

- أيوة هيك يا أم ملحم.... أبوي الله يرحمه كان يحكي الناس ما بصيروا جيران إلا حتى يشربوا الشاي مع بعض....

وضروري يكون خمير.

ضحكت أم ملحم، وضحك النجار وزوجته، والتي لم تنتبه لأم ملحم، لم تزح عينيها عن زوجها وساعداه يشتدان، وتبان عضلاتهما أثناء طرق المسامير في الخشب.

ارتشفت أم ملحم الشاي وابتلعت نصف الكأس ساخناً جداً، بعد أن ناولتها زوجة النجار الكأس بسرعة، خوفاً من سخونة الكأس، وبعد ضحكةٍ مستغربة:

- كيف شربتيها هيك.... ما احترق لسانك جارتنا؟

- آخ بس، والله اللي شفته من الحياة أكبر من كاسة شاي سخنة، الشاي يمكن حرق لساني أول مرة، وتعودت لما حرق لساني المرة

الثانية والثالثة، واستلطفته لما حرق لساني المرة الرابعة، وحالياً ما بستلذ بالشاي إلا إذا حرق لساني!

كلامٌ كبيرٌ على مجرد كأسٍ من الشاي، لم يفهمه النجار ولا زوجته، مع أن النساء غالباً ما تفهم كلام وتلميحات النساء، إلا أنّ زوجة النجار كانت غبيةً بلهاء.

بصدرٍ حانٍ يتمنى رؤيته كل رجال البلدة، وحتى صبيانها، ومع أن أم ملحم كانت عنوان الدعارة، إلا أن كلامها كان مليئاً بالأوجاع والجروح العميقة.

وحتى أم ملحم، استغربت من نفسها عندما أذن المؤذن لصلاة العصر، فقامت معتذرة، لتذهب لمنزلها وتصلي فرضها دون تأخير، وأنت أيضاً، لا تستغرب!! وعلى الرغم من أنّ النفس الإنسانية تميل للفوضى وحب الشهوات، إلا أنّ من يفعلون الفاحشة لديهم بذرة خير، بذرةٌ لم تُسقَ منذ زمن بعيد، فاندثرت وتعفنت في تربة

القلب، وتوارت خلف الملذات، ومع أنّ أم ملحم لم تكن لتذهب وتصلي كما زعمت، إلا أننا بنو البشر نرغب أحياناً في إظهار صفاتنا المحمودة، وسط جوٍ من الندم على أخطائنا بحق الله وحق أنفسنا، حتى وإن كانت تلك الصفات المحمودة غير موجودة أصلاً.

إنّ خير آيةٍ من كتاب الله تدل على ذلك جملةً وتفصيلاً، آيةٌ ربما سمعتها بصوت الإمام أحياناً في مساجد البلدة:

- (ربما يوَد الذين كفروا لو كانوا مسلمين)

فإن بذرة الخير والنقاء موجودة، ولدى أم ملحم قد تعفن أكثرها، وعلى الرغم من أن الجزء الصالح من البذرة يستيقظ أحياناً رغم مرضه، إلا أن الإمام دائماً ما كان يضع روث الحمير على البذرة، ليدثرها أثناء إحضاره لزبائن جدد، وإخراجه لأوراقٍ نقديةٍ أعلى قيمة، تضعف أمامها وتباعد ساقيها من جديد أمام سطوة المال والشهوة.

وفي طريق العودة، شدَّ طفلٌ صغير عباءة أم ملحم بقوةٍ غير متعمدة يجيدها الأطفال، وأخبرها بأنّ الشيخ فلاح بباب بيتها، كان صوت الطفل مرتفعاً، وأثناء انتباة البقال وزبائنه، نهرت أم ملحم الفتى ليخرس، وسط ضحكاتٍ وغمزاتٍ من البقال والزبائن.

وها أنت تعرف اسم الإمام، وصدقني، لولا ذلك الصغير ما كنت سأخبرك، فإن أردت أن تعرف أخبارهم فاسأل صغارهم، وأما عن سبب عدم إخباري لك، فأنا لست ساذجاً مخبولاً، فإن احترام أصحاب المعالي والفخامة واجب، يُنادى عليهم بمعاليك، سعادتك، فخامتك، ولا بأس من استخدام كلمات كشيخنا ومولانا أو حتى آسرنا، وتاجر قضيتنا.

من ماذا سأخاف يا هذا، ولست خائفاً الآن إن ذهبت الآن ووشيت بي للإمام، وقلت له بأنني أفضح أسراره، لم أتعلم الخوف ولن أخاف، في الحقيقة، أنا أرتعد خوفاً، وإذا أنزلت لك الكاميرا سترى قدماي ترتجفان، فإن للحيطان آذاناً صاغية، ولا أعلم لأي

قدرٍ وصل النفوذ بالذوات، ولربما قدموا الشيكات لصاحب البقالة، وربما للجزار، ولا أستبعد بأنهم يقدمون الرشوة "للحيطان" لتشيَ بي وبك، فإنني أرجوك يا هذا، لا تخبر أم ملحم بأنني فضحت أمرها ولا تخبر الإمام فلاح!

هل عليَ الأمان لأكمل؟ أم أن عليّ الاعتذار عن كل ما تكلمت به ودثره، أم أن عليّ افتضاح نفسي، وأن أجعل أم ملحم ترفع عليّ قضية شرف، بدعمٍ من الإمام فلاح، تشتري من التعويض الذي ستحصل عليه مني نبيذاً معتقاً، تقدمه للحفاة العراة.

مهلاً، سامحني أرجوك، لن تشتريه للحفاة العراة، فإنهم قد سافروا لبلادهم، بعد أن حصلوا على مُتعٍ كثيرة، وعبؤوا رؤوسهم بالملذات وكافة أنواع العهر، الذي لك أن تتخيل أنواعاً مختلفةً منه، أنواع من الفجور احتلت واستوطنت رؤوسهم التي لا يملؤها إلا روث الإبل والنعاج.

لا بأس، فلقد اشترت أم ملحم النبيذ أصلاً، وإن كانت لن تقدمه للحفاة العراة، فإن الإمام فلاح يرغب في توسيع شركته وأعماله، ولو كان ذلك على حساب أم ملحم وفرجها، وتوسيع الشركة يعني تقديم النبيذ غالي الثمن لكل الزبائن، وليس فقط مهمي الشأن، فإن ذلك سيزيد نسبة الزبائن "الطفرانين" وما أكثرهم بدلاً من اجتذاب الأغنياء وأصحاب النفوذ فقط، والذين لا يشكلون عُشر سكان البلدة.

دعك من هذا وقد أصابك الملل، فلترفه عن نفسك يا هذا ولتفتح ذلك التلفاز في زاوية بيتكم، فقد ثرثرت معك كثيراً لدرجة أنك قد نسيت تلفازك وقد امتلأ بالغبار، اِمسحْ ذلك الغبار وشغل التلفاز على قناة "الهنوف" أو " العنود"، لا أذكر اسم القناة جيداً، مهلاً، لا يهم اسمها بقدر أهمية ما تحتويه من متعة، أحضر كوباً من "البيبسي" واجعله كبيراً كفاية وضع ثلجاً فيه، وصحناً من"البوشار" المملح، واجلس وضع قدميك على الطاولة

باستعلاء، فالتلفاز تلفازك، والأريكة لك، وحتى البيبسي لك، تشربه منذ كنت طفلاً صغيراً، على الرغم من أنك لا تعرف مكوناته وما يحتويه ذلك المشروب الغازي، ولا أقصد بالغازي أنه مليءٌ بالغازات، بل أنه قد غزانا من بلادٍ بعيدة، ولك أن تعلم بأنه في بلاده مختلف الطعم تماماً، وحتى مختلف المكونات، وإذا نظفت به حمامك، فإنه يصلح لتنظيف المراحيض أكثر من الشرب، لا علينا الآن، وأعلم بأنك لا تعير الثرثرة على الغرب اهتماماً، خصوصاً وأنت تتفرج على أروع العروض دهشة على الإطلاق.

عرضٌ ربما لا تقدر قيمة المتعة فيه....

- الهنوف تسبق البقية، ما شاء الله! يا لجمالها وسحرها وهي تركض في المضمار.

- يا لجمال الذهب المتدل من عنقها الطويلة، ويا لجمال شفتيها التي تكاد تلمس الأرض.

ها هي الهنوف تسبق تهاني والمعركة حامية الوطيس، وها هي جميلة قادمةٌ من بعيد، وتسبق الجميع، إلا أن الهنوف دافعت ببسالةٍ عن المركز الأول، وها هي تُنصب بالمركز الأول، وتربح جائزةً قدرها خمسة ملايين ريال.

لا تبتئس من القراء الحانقين على مجلسك، فإن عقولهم الشهوانية دفعتهم لتخيل نساءٍ عاريات الصدور، يركضن في مضمار، أما أنت فلك الحقيقة كاملة يا صاحب التلفاز، ويا صاحب كأس البيبسي، ويا صاحب الأريكة وصحن البوشار المملح، ما كانت الهنوف إلا ناقة، وما كانت تهاني إلا ناقةً مثلها، ولن تكون ذكياً إذا اكتشفت بأنّ جميلة ناقةٌ مثلهما.

نعم، نحن في بلادنا العربية كلنا شبعون، ليس فينا فقيرٌ أبداً والصدقة، إن الصدقة إن أبديتها لن تجد من يأخذها، فنحن كلنا أغنياء، وتلك الأرملة أصبحت عاهرةً بإرادتها وطوع أمرها، ليس نقصاً ولا جوعاً، وإن الأطفال الذين تراهم في التلفاز يموتون

جوعاً، يموتون فقط لعدم وجود مياه نظيفةٍ في بلدانهم ليسوا في أفريقيا الإسلامية، بل في دولةٍ أجنبيةٍ لا يُقدر فيها الغني الفقير، وليس فيها الصدقات، وليس فيها دفء صحن يأخذه المقتدر لجاره التعيس.

نحن قومٌ مرفهون، نتناول "الدوناتس" ونشرب العصير" الفريش" ونمسح مؤخراتنا بالمحارم المعطرة، فماذا نفعل بالمال؟ فكر معي جيداً ولا تكن ذاك الغنيَ البليد، فلدينا صناديق من الدولارات والذهب، لا نعرف ماذا نفعل بها، لقد فتحنا بيوتاً لمن ليس له مأوى، ولقد أطعمنا الجياع، دعمنا التعليم وافتتحنا مصانع للسيارات والطائرات المدنية والحربية منها، ولدينا أفضل مصانع السلاح في العالم أجمع، فكما سميت بندقية "الكلاشينكوف" باسم صانعها، فإنّ لدينا مسدس "**مجحم 603**"، لدينا القنابل الانشطارية والهيروجينية، ومنها ما لا أستطيع ذكرها لك، فأنت

شخص متسلقٌ وبما تكون عميلاً يبيع وطنه وأصدقاء عروبته بإخباريةٍ واحدة، تقبض ثمنها بالعملة الصعبة!

أين نضع ما لدينا من الذهب والعملات؟ فإنها كثيرةٌ جداً وصناديقها تملأ المساجد، البيوت والمدارس وحتى الحانات، ذهبنا إلى اسطبلات ناقاتنا وحميرنا، أليس لتلك الناقات الحق في التزين والتبرج أيضاً؟ وتلك الهنوف التي يبلغ ثمنها عشرة ملايين ريال، والتي لو ذُبحت، لن تُطعم أربعة رجال جياع، لا بدَ لها من وضع قرطٍ في أذنها المليئة بالرمل والقمل، وبإمكانك رؤية المزادات تُقام، وتدفع الملايين بالناقات، وسلاسل من ذهبٍ مرصعٍ بالعار والياقوت يلف عنق العنود والهنوف، بينما تبكي طفلةٌ لم تكمل عامها الأول، بسبب نفاد أرخص أنواع الحليب في منزلها، وتقوم أمها بهز سريرها لتنام، ريثما تقوم الأم بتدبير الحليب بالاقتراض أو التسول أو ....

- وبيوم من الأيام رح أشرب من دمه، والله شاهد على كلامي!

- يا ابني مشان الله، إحنا عيلة مستورة ومش ناقصنا مشاكل، وهذول "شلة" يا ابني، مش واحد ولا اثنين!

- يمة أنا مش قادر، أنا بتعذب كل يوم لما بتذكر اللي صار.

- يا حبيبي اللي صار صار، وما رح نقدر نغيره، انتبه لدراستك، إنت على وجه تخرج يا عُبادة، ورح تصير محامي قد الدنيا.

إنسى اللي صار وفكر بمستقبلك يمة، بدي أفرح فيك وبتخرجك، وبعد التخرج بدي أكحل عيني بشوفتك عريس.

وبدي أشوفلك بنت الحلال اللي تسر قلبك وخاطرك.

- وبنت الحلال رح تقبل فيني يمة، وإذا بيوم حدا حكالها إني....

- إخرس، إخرس يا عبادة، إنت زلمة ورح تضل زلمة وقد حالك وألف بنت بتتمناك.

- على الله يمة.... على الله.

- قوم تغدى يا عبادة، أكيد ما أكلت بالجامعة كالعادة.

- اللي بقهرني يمة، إنه كيف قدر يرجع خادم مسجد بعد اللي صار وبعد ما انسجن.

- الله المستعان يا حبيبي، روح تغدى مشان تلحق مشان تدرس على امتحانك، وصاحب الشغل بتذمر.

أنا خايفة يبطلك من شغلك، ونقعد بلا أكل وشرب.

- آخ يمة، لو كان أبوي الله يرحمه عايش، ما كان وصلنا لهون.

- أبوك الله يرحمه عند ربه، وإنت هسا زلمة ومسؤول عني وعن البيت.

الله يرضى عليك ويحرسك ويجزيك عني كل خير.

حالما وصلت أم ملحم باب منزلها، حتى كان الإمام فلاح ينتظرها، يفرك يديه ببعضهما، وبعد أن وبخها بشدةٍ لتأخرها، دخلت عابسة الوجه والخدين، ودخل فلاح وأغلق الباب خلفه.

- فلاح، أنا مش خدامة عندك ولا عبدة، حتى تحتقرني بهالطريقة!

- اسمعي ولك، إنتي ملكي أنا، وغصب عنك بدك تعملي اللي بدي إياه عجبك أو ما عجبك.

بعدين بشوفك رفعتي الكلفة بيننا، اسمي الشيخ فلاح مش فلاح حاف يا....

- لا تغلط عليّ وبكفي، بعدين مش عارفة أتشكرك ولا أغلط عليك، بعد ما حضرتك طلبت من النجار يفصِلي غرفة نوم.

مش عارفة أنت بدك راحتي، ولا بدك راحة زباينك، ولا بدك تتقرب للنجار ومرته الحلوة!

- بالعكس يا أم ملحم، أنا بدي راحتك، بدي تكوني مبسوطة، إنتي مش عارفة كم رح تكلفني غرفة النوم؟

- مش عارفة وما بدي أعرف، أنا أصلاً مش مهمة عند حدا، وتطمن يا شيخ فلاح، الزباين ما بهمهم غرفة النوم وجمالها، بهمهم بس....

- بصراحة يا أم ملحم، إنتي شايفة الزباين عددهم بنقص يوم عن يوم، وإنتي كبرتي بالعمر، ومش الكل بفضل الكبار.

باليوم يا دوب ييجي زبون أو زبونين.

صحيح، شفتي جارتك الجديدة؟

- كنت عارفة يا فلاح إنه اللي أكلت بيوم لحم، رح يرميك بيوم ثاني عظم، هسا أنا بطلت أنفع الك ولزباينك؟

بعدين شو بدك بجارتي؟

وحدة مستورة وبتخاف الله، وبتحب زوجها وهو بحبها، وشفت هالشي بعيونهم!

- بدي جارتك....

- شوو؟

- بدي جارتك، بكيفها أو غصب عنها بدي إياها.

- بدك توسخها مثل ما وسختني يا فلاح؟

- إنتي وسخة من أول، أنا ما وسختك، ولو ما كان عندك القابلية ما صرتي هيك!

جارتك بدك تجيبيها لهون، وحكيت غصب عنك مش بكيفك.

- على موتي ما بشارك بهالشيء، أنا توسخت ومشي الحال، بس ما رح أوسخ غيري.

أنا ما إلي علاقة، روح على بيتها واطلب منها، رح أكون مبسوطة إذا زوجها فصل راسك عن جسمك!

- دايماً عنيدة يا أم ملحم، وهالشي بحبه فيكي كثير، روحي اعمليلنا كاسة شاي خمير، بدي أفرجيكي شغلة!

- مش بحكيلك من زمان أنا عنيدة، وما كنت تصدق.

- إعملي الشاي وتعالي.

خمس دقائق، كانت الفاصل بين أم ملحم والبكاء، بل والانهيار، وبعد أن أحضرت الشاي وقدمته للإمام ساخناً، أخرج هاتفه وفتح" الاستديو" أمام أم ملحم التي رأت الكثير، فيديو ترقص فيه عارية النهدين، وفيديو آخر وهي تمارس الجنس مع الإمام، وفيديوهاتٌ كثيرةٌ فاضحة، لا تعد ولا تحصى، وما لبثت أم ملحم حتى هجمت على الإمام فلاح، تضرب وجهه، وتحاول أخذ الهاتف منه، والذي بدوره ضربها بقوةٍ حتى أدمى وجهها الجميل.

- مين العنيد هسا يا أم ملحم؟

الفيديوهات رح يوصلوا لأهلك اللي مشتاقينلك كثير وزمان ما شافوكي، ورح يوصلوا لأهل زوجك المقبور وولادك!

- لا... مشان الله، رح أعمل شو ما بدك.

- يعني أفهم إنه رح تجيبيلي جارتك؟

- مشان الله لا، رح أعملك شو ما بدك، ومستعدة أخدم باليوم عشر زباين، بس ما تخليني أعمل هيك.

- أصلاً زباينك عددهم قل، حكيتلك قل، إنتي كبرتي بالعمر وزمنك خلص يا أم ملحم.

مش منتبهة على جسمك اللي بيترهل، بدك تجيبي جارتك أو...

- خلص خلص، رح أعمل اللي بدك إياه، وخطيتي وخطيتها برقبتك!

- العواهر ما إلهم خطية عند حدا يا أم ملحم...

لقد اشتدّ عودُه، فُتل ساعداه بالعضلات، جميل، جذاب، بلحيةٍ شقراء يتخللها الشعر البني، وعينان زرقاوان يشعّان، زرقة عينيه كانت أشبه ببحيرتين متجاورتين، فوقهما سيفان من الشعر، ما

هذان بحاجبين، إنهما سيفان تقع في غرامهما الفاتنات، لم يكن يهتم لهن، لقد كان يحزن ويصيبه الهم والصخب الحزين كلما نظرت له عابرة طريق، إنه يتذكر كيف تم اغتصاب طفولته أمام المتوضّأ، كيف أنه خلع بنطاله ولباسه التحتي، خوفاً من عدم دخول الجنة، جنة الشيخ أسامة مغتصب الأطفال، كيف أن هذا الخجل والعار الذي ليس له علاقةٌ فيه، قد لاحقه كشبحٍ ماردٍ سفاح، يسعى للانتقام منه ومن رجولته، وحتى فحولته التي لم يحس بها طيلة حياتة، وبالرغم من أنها مشكلةٌ ستحرمه من الزواج والأطفال، إلا أنه لم يفصح لأحدٍ عن مصابه، خوفاً من تغامز وتلامز البقال والجزار، وكل من هبّ ودب، لم يستطع الذهاب لطبيب، فإن ما يجنيه، يكفي بصعوبة لإطعامه وإطعام والدته المريضة، ودوائها غالي الثمن، والذي لا تأمنه الحكومة لغلائه.

وبعد ذهابه لمكان عمله، فقد كان يعمل في مطعم شعبيٍ بدوامٍ مسائي، يقتات منه ووالدته، يأخذ بقايا "الفلافل والكشري" المتبقي في أوعية المطعم لوالدته التي أحياناً ما تعجز عن الطبخ لمرضها، وعلى الرغم من أنّ صاحب المطعم كان يمُنّ عليه بهذا الفتات، يومياً ويسمعه الكلام، كلما احتاج لعطلةٍ ليدرس على امتحاناته شديدة الصعوبة، فقد قلت لك بأنه يدرس المحاماة، وحلمه كان يتلخص بالدفاع عن الأطفال المعنفين، القُصَّر الذين يتعرضون للاغتصاب والتنكيل، وحتى التحرش الذي يقلب خلقة الأطفال، ويحولهم إلى جثثٍ عديمة الإحساس بالحياة.

على الرغم من كوني سافلاً عديم الإحساس، إلا أنني أشفق على هذا الشاب الجاحد، ولا تفكر في كوني عديم الإساس، فقط لأنني مررت على أنواع العهر والفسوق والعصيان، فحتى السفلة لديهم مشاعر وإحساس، حتى ولو لم تستطع رؤية تلك المشاعر قط.

صحيحٌ بأنني لم أتعرض للاغتصاب مثل هذا المسكين، ولم أخلع بنطالي في متوضّأ المسجد، أمام داعرٍ كبير، يتخفى أمام الأذان كل صلاة، ولكنني عشت في مستنقعٍ من ضياع العائلة، فوالد عُبادة كان ميتاً، ووالدي كان ميتاً، ميتٌ في نفوسنا فقط، وفي نفس والدتي التي نشأت يتيمة الأب والأم، كان والدي سكِيراً عربيداً، هاجراً لفراش والدتي، عابداً للعاهرات، ممثلاً عن نقابة العهر والمجون، فوالله لا أذكر له موقفاً حانياً، أغار من أبناء الجيران الذين يأخذهم والدهم لدكان الحيّ، حاملاً إياهم بين ذراعيه وعلى كتفيه، وأخفي دموعاً كثيرةً خلف جدار بيتنا، وعيوني بارزةٌ حالمة، بيومٍ يمسح فيه أبي على شعري بحنان، وأن يخبرني كم هو مشتاقٌ لرؤيتي، لا أنكر أنني كنت أنتظر هذا اليوم بلهفة، لهفةٌ موجودةٌ فقط في خيالي، بعيدةٌ جداً عن الواقع، بوجود أبٍ كل همة هو مغادرة البلدة ذاهباً للمدينة لأيام، يعربد ويشرب، ويضع النقود

بعد تحويلها للعملة الصعبة في الملابس الداخلية لعاهرات الملاهي الليلية.

لك أن تعلم يا عزيزي، بأنك إن أردت ضبط زمام الأمور، عليك ضبطها كاملة، وألا تحاسب فلاناً وتترك فلان، ليس لك أن تتقاوى على الصغار وتترك الكبار، وأن تترك كبار المقام يرتعون ويستغلون المناصب ناشرين للعهر والرذيلة، ربما تتساءل لماذا أخبرك هذا الكلام الذي مررت عليه ولا تعلم ما مناسبته، ربما أصبحت يوماً ما رجلاً صاحب نفوذ، وزيراً أو نائباً للشعب، وربما أصبحت من أرباب الإصلاح يا غلام، فإن أصبحت فلا تكن مثلهم، ولا تسرف الوقت في مسح مؤخرتك بالمحارم المعطرة، بل ورش نفسك بالعطر والبخور، بل قم وأصلح، ولا تدع المجتمع يسرح في بحر الحضارة الزائف من الخديعة والمكر والمجون والتقهقر بالباطل، إما أن تكون قوياً لتمنع كل ذلك، وما بأيدي أصحاب السلطة والجاه، أو أن تتنحى وتترك مكانك لمن هو أكفأ

منك، أراك تنظر لي باستخفاف، وكأن العهر صعب المنع في مجتمعنا، وما زلت تفكر في مناسبة هذا الحديث.

هل نسيت بأنني كنت أخبرك عن العاهرات اللواتي كان والدي يضع المال في ثيابهن الداخلية؟ هل نسيت الملاهي والخمارات والنوادي الليلية، لك أن تعلم بأنّ منع كل شيء على سبيل التعميم لا العهر فقط، إنما يكون على صغار القوم وليس كبارهم، فها أنت تشاهد الحكومات تقوم بإغلاق البسطات التي تقتات عليها عائلاتٌ بأكملها، بسطة الخضار التي يقتات منها والدٌ لأيتام، بسطةٌ أخرى لصحونٍ بلاستيكيةٍ رديئة، يبيعها رجلٌ في السبعين من عمره، وعربة فولٍ قديمة، تلاحقها الحكومة ليل نهار، أرى أنك تراهم لا يلاحقونه لتذوق فوله اللذيذ، بل لمصادرة عربته، والتي يدفع من تعبه وتعبها رسوماً جامعية، لابنته طالبة الطب في سنتها الأولى، ولا تستغرب بأن عربة الفول تتعب، إن تلك العربة تتعب بقدر تعب صاحبها، عربةٌ بثلاث عجلاتٍ والرابع مكسور،

يجرها صاحبها جراً رغم ثقل جرة الفول وقِدر الفلافل، يجرها كجرة لزوجته العاجزة للحمام، بعد انتهاء عمله على تلك العربة، يا لسخافة الواقع وثقل العربة، فحال وصول المفوضين بمصادرة العربات والبسطات، يقوم صاحبها بجرها بحركةٍ بائسةٍ يائسة، كأنه يقول بأنه قد عَمِلَ ما عليه ليحول دون الإمساك به، وكالعادة فإنهم يمسكون به، ويصادرون عربة الفول ويبقى في السجن لليلة، وبعد أن يتم دفع الغرامة له من الخيرين، يخرج ليستلف منهم ثمن فك الحجز عن تلك العربة.

كان بإمكانه أن يتفادى كل ذلك، كما فعل بعض أصحاب العربات من دفع كل ما في جيوبهم، رشوةً للمفوضين بمنع من ليس لديه تصريح بيع متجول من أن يعيش ويعيش أطفاله، يضع يده في جيبه ويعُد" الفراطة" التي جمعها حتى الظهيرة، متردداً متذكراً لابنته الطبيبة في سنتها الأولى، وزوجته العاجزة عن دخول الحمام وحدها، ومع أنه خسر أكثر بأضعاف مما كان سيدفعه

رشوةً للجباة المتسلطين بأمرٍ من أصحاب المعالي، إلا أن نفسه تأبى أن يقدم تعبه وشقاء جسده النحيل، وجلده المتصبب بالعرق المغمس بالدم والتعب والحرمان.

إن البيع في العربات وعلى البسطات ممنوع، وإن الرزق الحلال ممنوع، فلمجرد أنك لا تملك تصريحاً للبيع في الشارع فأنت مجرم، وإن رزقك حرام، أما أن تدفع رشوةً لترخيص عربة الفول، فهذا الحلال بعينه في نظر أصحاب المعالي، والذين يبلغ ثمن حذاء أحدهم، ثمن عرباتٍ من الفول وليست واحدة.

إن مصادرة الصحون البلاستيكية عن بسطة رجلٍ مسكين حلال، ولكن ترخيص الملاهي الليلية حلالٌ أيضاً، وإن البيع على بسطة الخضار حرام، ولكن تقديم المشروبات الرَوحية والدعارة العلنية حلالٌ أيضاً، وبالتالي فإنّ وضع النقود في ثياب الماجنات حلال، لا أعلم ما كانت تلك المتعة التي يشعر بها أبي أثناء وضعه أموالنا في أماكن النساء المحظورة، لا أعلم، فربما كان ذلك

ليلمس جلدهن الأملس، أو لإثارة الرغبة والشهوة، أم أنه كان فقط للتباهي أمام أصدقائه!!

منذ أن بدأت أسرد لك، وأنت تراني سافلاً لعيناً، مررت على كل ناقص، ولا تستغرب عدم دفاعي عن نفسي، فشخصٌ نشأ في بيئةٍ كهذه، لا بأس في أن يكون كما أنا الآن، لن تحصد ثمار الفراولة في السنة التالية إذا كان ما زرعته في السنة التي قبلها هو الشوك، وعلى الرغم من أنني لم أكن الزارع، إلا أن الآباء يأكلون "الحصرم" وأن أطفالهم ليضرسون، وعلى الرغم من أن الحصرم حامض شديد الحموضة غير مستساغ للسان، إلا أنه كان قطراً مصفىً في فم والدي.

ونتيجةً لما زرع والدي، كنت مراهقاً شرهاً هائماً في الأسواق، لأتمكن من قرص المؤخرات الممتلئة للجميلات، فإنني ولي العهد الذي يجب أن يحافظ على التقاليد الملكية الداعرة التي أورثني إياها الوالد الشرِه، لقد جعلني غياب أبي ذاك المراهق العنيد غير المبالي،

خصوصاً بعد غيابه الدائم، ففي نظرك، كيف يموت سكِيرٌ عربيد متعاطٍ للمخدرات والسموم؟

إنك تثبت لي بأنك ذكيٌ أحياناً، فإما أن يموت بتشمع الكبد، أو أن يموت بجرعة مخدرات زائدة، أو ربما يموت بجلطةٍ تطيح بقلبه، بعد أن يتناول المقويات الجنسية ليتمكن من إثبات فحولته لصهباء مرّ على جسدها مئات الرجال الأقوياء.

سأخيب ظنك يا عزيزي، فوالدي لم يمت بإحدى هذه الأسباب، لقد كان مقامراً خاسراً دائماً ما يلعب القمار مع أصدقاء الملهى، أحياناً ما يلعب في منزل أحدهم والذي بعث بزوجته لزيارة أهلها في المدينة المجاورة لأيام، وفي تلك الليلة، خسر كل ما لديه من مال، فسحب سكينه مطالباً بإرجاع كل أمواله، تلقى أول طعنةٍ منهم في رقبته، وتلتها الأخرى في صدره مخترقةً قلبه، وبعد أن تم تقطيعه ووضعه في البانيو وإحراق قطع جسده الكثيرة، لاحظوا أن الأجزاء المحروقة ما زالت كثيرة، فهم لم يحرقوها جيداً، وإن

حرقه كان مضيعةً للوقت، تم اللجوء لوضعه في كيسٍ بلاستيكيٍّ كبير، وكانت بقاياه ثقيلةً جداً بما أنه كان سميناً يصرف نقودنا على المطاعم والفتيات وعاهرات الملاهي.

لقد اكتشفنا ذلك كله بعد سنوات، وبعد أن وجدت الشرطة بقايا لجسدٍ محروقٍ أكثره، في منطقةٍ أثرية، فلقد تعرفت عليه والدتي من خاتمٍ مميزٍ كان يضعه في إحدى أصابع يده اليمنى، والذي لم تصله النيران، لم نستطع المطالبة بحقنا حتى، فبعد أن توصلت الشرطة إلى الحقائق ومعرفة مَنْ قتله، كان جميعهم قد فارق الحياة، فمنهم من تم قتله من قِبل مجهولين، وأرى أنك قد تضع احتمالاً بأنهم خافوا من ضميره الذي استيقظ فجأة، فدحروه للعالم الآخر، أم أنه فعلاً قُتل من قِبل مجهولين؟

أما عن الآخرين، فمنهم من مات بجرعة مخدراتٍ زائدة، ومنهم من مات بتشمعٍ للكبد، ومنهم من مات بتوقف قلبه على فراش إحدى العاهرات، بعد جرعةٍ من المنشطات، أرى أنك بدأت تدرك

كيفية موت السفلة، ولا شك في أنني سأموت مثلهم، أو حتى بطريقةٍ أبشع من التي مات بها والدي، أم أن الله سيمدني في طغياني أعمه فيه، لأُعاقب في سراديب جهنم.

كنت أتمنى بقاء أحد قتلة والدي على قيد الحياة لننتقم، ليس رغبةً في الانتقام وليس حباً بذلك الوالد، بل رغبةً بتعويضٍ تحكم لنا المحكمة به، لننعم بحنان المال بعد موت حنان الأبوة، حتى وهو حيٌّ يرزق، وحتى تعويض المحكمة كان بعيداً كل البعد عن أفواهنا المحرومة.

لست حقيراً لهذا الحد، ما زلت أذكر ضربه لوالدتي، ومناداته لها بالكلام البذيء والحقير، عندما ترفض إعطاءه مصروف البيت ليزور الملاهي والعاهرات في المدينة، رغم أنه لم يكن يعمل، وكانت هي من كانت تتعب وتشقى في الخياطة والحياكة، تحيك القفازات وتجلس لتبيعها في سوق الجمعة وشوارع البلدة، لتسدَّ حرماني وحرمان إخوتي، ولا زلت أذكر كيف كنت أنام كل يومٍ

ليلي الطويل دون التفكير بوالدي المقتول، وحتى والدتي المتعبة، وما زلت أذكر تلك الليلة، عندما غفوت وتقلبت دون عشاء إلا أن غبت في نومٍ عميق.

صوت بكاءٍ وصياح يملأ المكان، يرن في أذني، تبكي خالاتي وعماتي على جثةٍ هي جثة أمي، أبكي معهم ونملأ المكان بالدموع، حتى الأقرباء الذين لم أشاهدهم منذ قرابة العامين بكَوا وكأنه واجبٌ عليهم، سميرة التي في الصف الثاني، والتي كانت مدللة والدتي رغم الفقر، تدللها بكل ما هو متاحٌ رغم القلة، أرى عاصم أخي الأصغر، والذي يبكي كل يوم قبل ذهاب والدتي لبيع ما تحيك من قفازات، وعلى باب عريشتنا التي نسميها منزلنا، تقَبله وتوعده "بالملبس" حال عودتها إن باعت ما حاكت.

أرى أمي أمامي في صورةٍ كأنها الواقع الضائع، أشعر بالحزن الذي لم أشعر به أبداً وهي حيةٌ ترزق، ويا لأسفي على ما أشعر به في مماتها، أراها ما زالت ترضع عاصمَ، والذي أصبح كبيراً على الرضاعة، ولكنها لا تمتلك ثمن حليب الأطفال، أراها تحثني على الدراسة، تقول لي بأن لا شيء سينفعني إلا دراستي، كانت تعايرني بواقعنا المرير، لعلّي أخرج وإخوتي من ضيق حال عيشنا.

ليتها ترجع، ليتها تقول لي تلك الكلمات مجدداً، ولو كانت بنبرة الغضب التي كنت أظنها عدم حبٍّ واهتمام، الآن أدركت حبّها، أدركته بعد فوات الأوان، فهذه الجثة لن تستيقظ، ولن تعد لنا فطوراً من الخبز الحاف والشاي، لن تضع يدها في شعري حتى أغفو مجدداً، إن من لديه النعمة ليس كفاقدها، يا ليتني متُ أنا ولم تمُت هي، ربما كان بالإمكان الحفاظ على العائلة من الضياع، إحساسٌ بالذنب المجهول يقودني للماضي، يذكرني بنفسي عندما رفعت صوتي فوق صوت أمي الأرملة المسكينة، أصرخ في وجهها بعنف، فأفرك لساني بأظافري الطويلة التي كانت أمي لا تسمح لي بتربيتها اقتداءً بمراهقي الحيّ.

أراها تداريني طول النهار، كنت أقرب طيبتها للضعف، ولكن إدراكي الآن جاء متأخراً جداً، كانت تمسح وتكنس وتحيك القفازات، ببساطة، كانت هي الرجل والمرأة في حياة والدي ومماته، وعلى الرغم من خوفي من الموت والأموات، إلا أنني أمسك بيدها،

يدها التي يملؤها الدفء ما هي الآن إلا قطعةً من ثلج، أين ذلك الحضن المليء بالحرارة والدفء والعاطفة، والكثير الكثير من الحبّ؟

نحن نشعر بالبرد أصلاً، وسنبرد أكثر، فلا أحد سيغطينا أنا وإخوتي، ومن سيقوم من دفء فراشه ليغطينا غيرها؟

كانت عيناها كالخرز في كأس ماء، تؤلمها عيناها وتجد صعوبةً في إدخال الخيطان في خرم الإبرة، حياكة القفازات والسعي لبيعها في الشوارع، جعلت من يديها خشنةً كأيدي الرجال، لا تملّ منا كانت ولا تتعب، لغير مصلحتنا لا تغضب، تحتاج نظارةً توفر ثمنها؛ لتدفع أجرة عريشتنا، بل أقصد منزلنا، تزوجت صغيرةً من ماجنٍ ذكر ليس برجل، وماتت أرملةً لفاجرٍ عنيد يهوى القمار والنساء.

أُحس بشيءٍ يتحرك على جسدي، أُمي تغطيني، ويا للهول، أمي تغطيني أدرك أن ما كان، كان حلماً، فعانقتها بشدة.

- من متى بتحبني وبتحضنَي هلقد؟

- يمة والله بحبك، والله بحبك.

طيب خذ إشرب المي ونام، مشان الله ما تضل تتكشف، والله تعبانة عندي صحوة بكير، بدي أروح أبيع اللي اشتغلتهم اليوم، بلكي الله يفرجها علينا.

كان كل ذلك حلماً، حلمت به في بداية مراهقتي بعد موت والدي المتوفى، وما زلت أذكره، وما زال يراودني إلى الآن، على الرغم من أني أربعيني، ألم تذكرني متكئاً على أحد أعمدة المسجد، بشعرٍ أشعث أجعد، بملابس من البالة، على وجهٍ متجهمٍ ملول، وإلى الآن ما زال الحلم يراودني، بل ويقتلني كلما زارني مجدداً.

بعد ذاك الحلم الذي راودني، وبعد أول مرةٍ رأيته، بدأت أحب أمي أكثر وأكثر، على الرغم من كوني سارقاً للبيض من القن الخاص بجارنا، وعلى الرغم من كوني مراهقاً وضيعاً، لم يمنعني ذلك من حبي لها، حبي الذي لم أستطع إثباته لها يوماً ولن أستطيع، وكنت

أتخلى عن هذا الحب كله، لمجرد احتياجي لشيء لا تستطيع تأمينه، كانت تسألني دائماً من أين أحضر المال، وكانت إجابتي السافلة على رأس لساني دوماً، أقول لها دوماً بأنني أعمل في "العتالة"، وعلى الرغم من التبرير كانت دائمة الشك بي أثناء تعليقها على جسدي النحيل الذي لا يستطيع حمل كيسٍ من حنطة، إلى أن قطعت الشك باليقين ذات يوم.

وها هو جارنا، صاحب الوجه العبوس، يجرني من شعري، ويشهد الله بأنّ خصلات شعري بقيت تزين يديه في ذلك اليوم، لقد جرّني من قن الدجاج خاصته لباب بيتنا وسط صراخه الذي معه حقٌّ فيه، ثم دقَ الباب بغضب، وكاد يخلع الباب البالي...

- تعالي يا حُرمة، تعالي شوفي ابنك الحرامي، حرامي البيض، إطلعي عليّ بسرعة قبل ما أكسر الباب وأهد عليكم الدار.

- شو مالك يا زلمة؟ ليش بتصرخ، أترك الولد ليش ماسكه وبتشد شعره؟

هجمت عليه كذئبةٍ عنيدة، وأفلتت قبضته عن شعري، وبعد صراخها عليه، وأثناء تجمع نساء الحارة والجارات، منهنَّ من ينظرن بفرح، منهنَّ جُلَّ ما دفعهن للتجمهر، هو الفضول فقط!

- ابنك سراق وحرامي يا خانوم، لو كان عنده أب يربيه ما كان طلع خوان "وسرسري".

- احفظ لسانك.... ابني مش حرامي، صح يمة يا.....

التفتت إليّ بعيونٍ تملؤها المهانة والذل، تداري عليّ وقد عرفت بأنني سارق، أجلب المال من بيع البيض الخاص بجيراننا، وحالما لم أرد بكلمةٍ واحدة، رمقني جارنا الغاضب بنظرةٍ كلها حقدٌ واحتقار...

- اسمعي يا "جعانة" يا عيلة حرمية، إذا بشوف ابنك مرة ثانية حوالين بيتي، رح أرجعلك إياه جثة، فاهمة عليّ، جثة رح أرجعلك إياه.

لشعور الخنقة من والدتي عندما جرتني من سترتي للداخل نكهةٌ مليئة بالأمان، على الأقل ذهب جارنا "البعبع"، مدخلةً إياي الدار، جاحدةً غاضبة، تضرب وجهي بقوةٍ لم أعهدها من قبل.....

- ولك إنت بدك تفضحنا يا حرامي يا وسخ؟

تعال فهمني، ليش كنت بتسرق بيض الجيران؟

- يمة أنا آسف، والله آسف، وما رح أعيدها والله.

- عاجبك يا "نذل" كيف صرنا وسخين بنظر الكل؟

عجبك منظر جارتنا أم محمود، وهي تضحك من ورا منشر غسيلهم؟

- لا يمة، ما كانت تضحك، كانت تتبسم بس!

وبعد صفعةٍ قوية، خلخلت أسناني المليئة بالتسوس...

- إخرس، هاد اللي هامك، تضحك ولا تتبسم!

تعال قرب مني، ليش هيك ريحة ثمك؟

قرب مني، تنفس بوجهي أشوف.

ركضت مباشرةً هارباً لما كنا نسميه المطبخ، وسبقتني "مشايتها" القديمة، طارت بمحاذاة أذني، بعد أن انطلقت بسرعة صاروخٍ كاذبٍ لم ينطلق أساساً لوكالة ناسا، فاصدمت تلك المشاية بطناجر المطبخ التي لم نطبخ بها منذ زمن، استسلمت أخيراً وقررت أن أتنفس بوجهها، لأحتفظ بحياتي على الأقل...

- بتدخن كمان يا كلب، والله لأشرب من دمك.....

- آه بدخن، بفش غلي بالدخان، إنتي شايفة إنه إحنا عايشين أساساً، ما إحنا الأكل ما بنلاقيه!

بقيت علامات عصا "القشاطة" على جسدي لأيام، وكانت أمي ترفض أن تكلمني، مهما تقربت منها ولكن ذلك لم يطُل أكثر...

- تعال يا نصاب، خذ هالفلوس وروح اشتري دخان، لإنه هاي المرة رح تروح تحلب بقرات الجيران كمان!

وبعدم مسؤولية، أخذت منها المال مسرعاً خارجاً من باب الدار، حتى أوقفتني جارتنا.

- فوت ناديلي أمك خليها تطلع تقعد معي"بالشمسات".

دخلت الدار مرةً أخرى، نظرت إلى أمي جالسةً تنظر للحائط، والهمُ ظاهرٌ بقوةٍ في عينيها.

- يمة، جارتنا بتقلك إطلعي اقعدي معها برا.

- قلها أمي بتطبخ مش فاضية!

- يمة بتطبخي قاعدة، يعني اليوم فيه أكل زاكي؟

- بطبخش يا نصاب، إطلع قوللها هيك وبس!

اشتريت سجائري وعدت، نظرت لباب عريشتنا، فلاحظت بأن حذاء أمي مشقوق، وغير صالحٍ للاستخدام حتى، وكانت أمي لا ترغب في أن تراها جارتنا مرتديةً لذلك الحذاء المشقق، بينما أخذت أنا ثمن مشايةٍ جديدة، لأشتري سجائري وأنفث دخانها أمام مراهقي الحيّ.

هائماً على وجهي في شوارع البلدة، أنفث الدخان وأحملق في النساء وكل ذات حُسنٍ وزينة، وحتى من لم تكن حسناءَ لم تسلم من نظراتي، ففي عالمنا العربي لو لبست المرأة ثوباً من "الخيش" لتبعتها نظرات الرجال الشبقين لما تحت الثوب، منهن من كنت أوصلها لمنزلها، أحملق في كل سنتيمترٍ من جسدها، وماذا سأكون وأنا ابن أبي!

مراهقاً كنت وزوجها في دكانه، أدخلتني منزلها بعد الكثير من الغمزات بيننا ولمزات الشياطين، ولأول مرةٍ في حياتي أختلي بامرأة ناضجة ثلاثينية كانت بوجهٍ شاحبٍ، أسودُ هو لون الجلد تحت

عينيها، لم أكن خبيراً جيداً بما يحدث بين الرجل والمرأة، فدلتني هي، وحالما انتهينا أخبرتني بأنه لا بأس بي بالنسبة لرجلٍ في المرة الأولى.

أسامر نفسي وعقلي الثمل بسبب ما حصل، لقد أخبرتني على الأقل بأنني رجل، لقد وصفتني بذلك ولم تقل مراهقاً ولا ساذج، لقد أخبرتني بأنه لا بأس بي، لا أعلم، فهل كنت رجلاً فعلاً، أم أنها كانت تطمع فيما سيأتيها إن تعلقت بما لديها وما علمتني إياه....

رجعت للدار واستحممت، ونفثت سيجارةً فخورة، بعد علاقةٍ جنسيةٍ كاملة، ولا أخبئ عليك، لقد شعرت بأنني فحلٌ عظيم، وفي اليوم التالي، ذهبت لباب منزلها، منتظراً خروجها، كطفلٍ ذاق العسل لأول مرة، وأحب ذلك المذاق لدرجة أنه أراد التجريب والتجريب، لم تخرج تلك المرأة ذلك اليوم، ولا الذي بعده، مرَ

أسبوعٌ كاملٌ لم تخرج، وكنت ككلبٍ مسعورٍ على قطعة لحمٍ عفنةٍ أمام منزلها.

لم أتعب ولم أمَلّ، لقد خرجت أخيراً، ومرَت من أمامي بثوبها الساتر الطويل والذي رأيت ما يخفيه، ولكنها لم تعرني اهتماماً، فبقيت خلفها أمشي من بعيد، حتى اشترى لها رجلٌ لا أعرفه عطراً غالي الثمن، أعطاه لها وسط جوٍ من الغمزات المتخفية، عادت لمنزلها فبقيت خلفها، وحالما وصلت جذبت عباءتها من الخلف وأوقفتها...

- مالك يا ولد، ليش هيك بتعمل، شو فيه؟!

- مالك إنتي، مش عارفيتني؟

- لا، مش عارفيتك، ابن مين أنت يا ولد؟

- ولد! على أساس كنت زلمة قبل أسبوع!

- اسمع ولك، من الآخر إذا بدك تدخل مرة ثانية، بدك تدفع مصاري، غير هيك ما عندي.

مفكر إنك عجبتني ورح أعملك اللي بدك إياه ببلاش، روح جيب مصاري وتعال.

دخلت بيتها وجررت خيبتي، فذهبت للدار، نفثت آخر سيجارةٍ في علبة السجائر، وسؤال يراودني، من أين أجلب المال؟

شبقي كمراهقٍ كان أقوى من حرمان العائلة، وعندما سألتني أختي الصغيرة ما بي، صفعتها على وجهها، بكَت كثيراً ومنذ ذلك اليوم أصبحت تتجنبني ولا تقترب مني، صفعتها أثناء ترجي أمي للناس في الشارع بأن يشتروا قفازاتها المحبوكة بالكثير من الخيبات، يومٌ آخر من الشبق والتفكير، كنت قد بعتُ طناجر دارنا لتاجر الخردة في البلدة، فهي أصلاً مهترئة، ونحن أصلاً لا نستخدمها، ولا نطبخ إلا في المناسبات والأعياد.

تحرك بؤبؤ عيني عندما أعطاني صاحب محل الخردة المال، متخيلاً تلك العاهرة، تباعد لي ساقيها في مطبخ بيتها وفي الصالون، ذهبت مسرعاً إليها، فتحت لي الباب وسألتني ماذا أطلب، أريتها

المال بفخر، وعلى الرغم من أن المبلغ لم يعجبها، إلا أنها أدخلتني بسرعة خوفاً من أن يرانا أحد، لنصف ساعة، تبادلنا العلاقة المحرمة والعهر والفجور، وأثناء ارتدائي لبنطالي طُرِقَ الباب...

- مين، مين عالباب.. ميين؟؟

- أنا، افتحيلي بسرعة الجو كثير شوب برا.

- قوم، لساتك بتلبس، هاي أخت زوجي، إطلع من الباب اللي ورا، وما بدي أشوف وجهك مرة ثانية!

وبنذالةٍ أجيدها، رغم أن الموقف مخيف، واكتشاف الموضوع ثمنه حياتي قبل حياتها...

- رجعيلي اللي دفعته، وإلا ما رح أطلع!

- خُذ، الله يلعنك، إذا بشوفك بباب البيت مرة ثانية، رح أشكي عليك، إنقلع إطلع من بيتي.

خرجت ورأسي مليء بالثمالة مجدداً، ذهبت إلى البقال، زوجها ذاته، واشتريت ست علبٍ من السجائر الفاخرة، فمن حقي كفحلٍ عظيم أن أدلل نفسي بسجائره، بعد أن أتعبتني زوجته اللبؤة، رجعت لدارنا داخلاً فارداً ريشي كالطاؤوس، جلست وأختي الصغيرة جالسةٌ في مكانٍ بعيدٍ عني، لا تجرؤ على الاقتراب، دخلت أمي فرحة، تحمل كيسين ثقيلين، لا نراهما في معظم الأيام...

- قوم يا حبيبي، جهزلي الطناجر وشغل " الببور".

بدنا نطبخ اليوم، جبتلكم لحم وبرغل.

فرحت كثيراً، فنسيت بيعي لطناجرنا القديمة، وحالما وجدت مكانها فارغاً تذكرت.

- يمة، باب الدار اليوم كان فاتح الصبح، وشكل الطناجر مسروقات.

- آخ على حظي "المسخم"، وآخ على هالعيشة آخ.

الله يكسره اللي أخذهم ودخل يسرق بيتنا.

- يمة ليش هالخرابة اسمها بيت؟

- إخرس، بكفي إنو عنا حيطان عايشين بينها، غيرنا هالحيطان بتمناها.

- روح على جارتنا أم أحمد، وجيبلي من عندها طنجرتين كبار.

يومان فقط كانا يفصلاني عن كسر قدمي، بعد أن تزحلقت أمام دارنا، رنت في أذني دعوات أمي على سارق الطناجر، كانت بسيطةً جداً، لم يخطر ببالها أنه لم يكن بينها وبين الله حجاب عندما دعَت بقهرٍ على السارق، وآخ لو أنها تمنَت "شوالاتٍ" من النقود.

أمسك بعصا تساعدني على المشي أمام دارنا، أثناء تهافت الجارات، ومن بينهن أمي تركض معهن نحو منزل البقال، يمسك البقال برجل، ونعم، إنها ذات المرأة التي زنيتُ بها، يمسك زوجها بالرجل ويضربه ويضربها مطلقاً الشتائم، بينما كان الرجل بين يديه ما

زال يرفع بنطاله أثناء تعرضه للصفعات دون رد، كيف يرد وقد زنى بزوجة الرجل؟

خمس دقائق وحضرت الشرطة، وأخذت الجميع للمخفر، ومما وصَلنا بأن زوجها قد طعن بنسب أبنائها، وضل يردد بأنهم " ولاد حرام"، فطلقها وحصل على تعويضٍ ماليٍّ كبير، من الرجل الزاني وأهل زوجته الفاجرة طرداً لشره والفضائح، هل الله يحبني لهذة الدرجة، فلم أتعرض لموقف الزاني؟ أم أن ذاك هو حظ العواهر مجدداً؟ وقد أخبرتك بأن "حظ العواهر جواهر".

في الحقيقة، لقد نجوت بأعجوبة، كان من الممكن أن أكون أنا من تم الإمساك بي في منزلها، مع أول صفعةٍ على وجهها في المركز الأمني، اعترفت بكل شيء، وها هي تكتب اسم كل رجلٍ نام على جسدها الفاني في مفكرة رجال الشرطة، والذين يصفعون وجهها تارة، وينظرون أسفل رقبتها تارةً أخرى ليروا ما تبديه ملابسها أثناء نزولها لأقدامهم تترجاهم وتطلب الرحمة بعد الصفعات،

لأيامٍ بقيت خائفاً، فها هم رجال الشرطة يأخذون جارنا المتزوج من أشهرٍ فقط، وبعد مرور أيام، اكتشفت بأن الشرطة اعتقلت ما يزيد على العشرين رجلاً، مرَ أسبوعٌ ولم يمسسني أحد، وقتها تذكرت كلام تلك المرأة بأنني ولد، وأنها لم تعترف بي كرجلٍ أصلاً، وأن وصفها لي كرجلٍ في بداية الأمر، كان فقط لجذب أبلهٍ هائمٍ على وجهه.

لا بأس، لا أريد أن أكون رجلاً إن كان ثمن الرجولة هو صفعات رجال الشرطة والحبس ودفع الغرامات لزوجها البقال، كنت أنضج سريعاً، وأمي كانت تهرم أسرع، سرعان ما بدأت بالتعرف على أرباب السوابق والخمور والمنكرات، بل بدأت بمجالستهم وتذوق " العرق" الرخيص خاصتهم ولقد كان مجاناً في بداية الأمر، في نظري كانوا رفاقاً كالإخوة، حالما جلسنا للشرب، تساوت المشاعر والأحاسيس، فكلنا جالسين مرحين فرحين، جُلَّ همنا هو

الاستمتاع وتلويع أعضائنا الجسدية، نصلي مع خمرنا لبلوغ أرواحنا البرزخ والتسامي.

ما زلت أذكر عندما أتيت إليهم منزعجاً من والدتي بعد شتائم كثيرة، على وضعي وعَطَلتي، كنت بحالٍ مزرية، منهارٌ أحتاج للشرب بشدة، إلى أن فاجأني أحدهم بسيجارةٍ من "حشيش"، مدّعياً بأنها ستريح أدمغتنا بعد تناولها سوياً، كانت رهيبةً جداً من حيث المفعول، سيئة المذاق، وكأنني أتذوق الروث المحروق، صحوت في اليوم التالي تحت تلك الشجرة، في أحراشٍ بعيدةٍ عن البلدة، متبولاً في بنطالي ورأسي يؤلمني بشدة، لم أستطع العودة للدار حتى جلست في الشمس وجف البنطال، وعدت للمنزل وكانت رائحتي نتنةً جداً...

فتحت باب الدار بعيونٍ حذرة، ولكنني وجدت من ينتظرني بعيونٍ أشدَّ حذراً وقسوة، ضربتني أمي بقوةٍ أمام إخوتي الصغار، فما كان مني إلا أن فتنت بساعديّ اللذين اشتدا، فدفعت والدتي

لتقع على الأرض وأخرج من المنزل، حقيراً كنت أجر خيبات والدتي التي تركتها تبكي على بلاط الدار أمام الصغار، أي غضبٍ إلهي يجعلك تضرب والدتك في آخر لقاء لكما في هذه الحياة، وفي آخر مرةٍ ترى فيها وجهها؟ والآن دعك مني قليلاً أرجوك فهذه الذكريات تؤلم حقاً، تؤلم حتى السفلة.

عاد عُبادة في ساعةٍ متأخرةٍ كالعادة، بيده كيسٌ يحوي طبقاً من الكشري وأربعة أقراصٍ من الفلافل بالسمسم، وقد كانت رديئةً بائتة، وبعد أن أزال غطاء الطبق، أزال ذبابةً ميتةً من على شرحة بصل، لا أعلم هل من حضّرَ الطبق قذر، أم أن كل الأطباق التي يمنّ بها عليه صاحب المطعم كلها بائتة ومن اليوم السابق أو الذي قبله، أزال عبادة الذبابة بعيداً بحذرٍ عن عيون أمه وبدآ الأكل سوياً.

- يمة يا عبادة.... بتقدر تعطل بكرة عن الجامعة؟

- ليش يمة، مالك اشي؟ عندك مراجعة عند الدكتور؟

- لا لا يمة، خالتك وبنتها سناء جايات عنا بكرة، بدهم يقعدوا عنا أسبوعين.

- أووف.... لشو الأسبوعين؟

- يمة مهي خالتك أرملة، وما عندها حدا يسأل عنها وعن بنتها، بدها تغير عنا جو.

- أهلاً وسهلاً يمة، ما حكينا شي، بس....

- مالك يا عبادة، ليش منكد؟ مش حاب تشوف بنت خالتك اللي صارت مثل فلقة القمر؟

وبعدين أول مبارح طلعوا قبولات الجامعات والبنت طلعلها بنفس جامعتك و....

- أيوة، احكيلي هيك من أول، يعني الزيارة كلها مشان الست سناء تسجل بالجامعة.

أنا اللي بدي أروح معها كمان؟ وأنا اللي بدي أشتغل منها وأحملها عظهري؟

- يمة يا حبيبي، اللي بساعد الناس الله بساعده، والخير اللي بتعمله رح يرجع ويصيبك بيوم.

- ماشي يا أمي، طلباتك أوامر، بس بدون ما تلمحي ولا تحكي عنها حلوة، أنا ما بدي أتجوز وخلص.

أصلاً أنا شاكك أنه ملعوب منك مشان أتجوزها من وقت ما رجعتي من عندهم قبل شهر وحكيتيلي عنها.

- خلص اسكت اسكت، بكرة بتروح تستناهم بموقف الباصات، وما تخلي سناء تحمل الشنتات، خليك راقي زي الرجال اللي بنشوفهم بالمسلسلات.

- حاضر يمة، في شي ثاني بدك إياه مني؟

- آه، خذ هاي الورقة قبل ما أنسى، جيب هذول الأغراض مشان أعمللهم غداً.

معاك مصاري؟

- توكلي على الله يمه، أول مبارح أخذت راتبي، بعد ما ذاب قلبي حتى أعطاني إياه.

بس الحمد لله "البخشيش" إلهٰ أسبوع ممتاز وربك برزق يمة.

- والنعم بالله يا حبيب أمك.

وفي موقف الباصات، كان الجو حاراً جداً، ينتظر عبادة منذ الصباح الباكر، مرت ساعة، ساعتان، لم يستطع تحمل الحرِ والعرق النازل من جبهته اختلطت الروائح في أنفه، زائحة "زفتة" الشارع الرخيصة، والتي تكاد تذوب مع الحر الشديد، ورائحة "جِل الشعر" الرخيص الذي يضعه على رأسه وسال على جبهته ورقبته، لا تستغرب، فكل شيء هنا رخيصٌ من النخب العاشر، زفتة الشارع وكل الأرض، وربما حتى "البني آدميين" أنفسهم، وحتى مسؤولي البلاد الذين يقومون باستيراد كل ذاك، فنحن قومٌ يا لعارنا، لا نأكل مما نصنع، وأثناء التفافه مبتعداً لدكانٍ في مجمع الباصات، سمع صوت الباص قادماً، بينما كان يدفع ثمن العصير "السلش"، حلوٌ جداً بكثيرٍ من السكر والقليل من النكهة، ولا داعي للامتعاض والرفض، فحياتنا كلها مبنيةٌ على تقبل كل رديء مع إغلاق الأفواة، من كأس العصير وحتى الانتخابات البرلمانية، لا نستطيع في بلدتنا وفي كل بلادنا أن نقول لا، فمن يقول لا،

يصفد كما تصفد الشياطين، في زنازين المخابرات وقوى الأمن الناعم في مواقع التواصل وعلى التلفاز، والأكثر من خشنٍ في السراديب تحت الأرض.

نزلت خالته ونزلت فلقة القمر، كما وصفتها له والدته بالضبط، ملاكٌ هابطٌ من باصٍ، كان كل ما يتمناه، هو الرجوع بالزمن، وإخبار والده أنه لا يريد الذهاب للمسجد بعد عصر الجمعة، وأنه غير مرتاح بصحبة أسامة، معقل مشكلته النفسية، والتي أثرت على رجولته ومستقبله.

- أهلاً يا خالتي، أهلاً وسهلاً، هاتي هالشناتي أحملهم عنك.

- لعاد مفكرني بدي أحملهم أنا! خذ خذ.

قرصت خديه وكانت مزوحة، بل وذات دمٍ خفيف، وأخبرته بأنه يملك وجنتي والدته وعيون والده، كان يريد أن يريها قلبه أيضاً، لترى أنه يملك لمسات أسامة أيضاً في قلبه، أخبرتك سابقاً بأننا

كلنا نتاج، نتاجٌ جينيةٌ للآباء، وحتى نتاج من يؤذينا ويعربدون على قلوبنا.

- كيفك يا ابن خالتي الحلو؟ مبين من وجهك إنك خريج هالفصل!

- لا والله هاد تعب الحياة، وإنتي كمان حليانة وصايرة صبية يا سناء.

وسط نظراتٍ من الأم بالانبساط، فواضحٌ بأن تطويع عبادة وسناء وإعجابهما ببعضهما لن يكون بالأمر الصعب كما أخبرتها أم عبادة، ووسط احمرارٍ لوجنتي سناء، غادر الجميع موقف الباصات متجهين للمنزل.

بإمكانك رؤية أجواء الترحيب في منزل أم عبادة، وبإمكانك اشتمام رائحة "الكبة" المشوية، والكبة اللبنية، والفراخ المحمرة، لا بأس فهم يحتفلون فقط، بعد أن صرفَ عُبادة نصف ميزانيته ثمناً لهذة الوجبة الدسمة.

- يمة يا عبادة، تعال خذ صينية الشاي لخالتك وبنتها في "الحوش"، واسمع، من اليوم رح تنام بغرفة لحالك.

أنا رح أنام مع خالتك وبنتها، دير بالك تطلع من الغرفة بالليل، قبل ما تنادي مرة ومرتين وثلاث.

- يمة سناء زي أختي.

- اِخرس يا عبادة، لا أختك ولا شيء، اعمل زي ما بحكيلك.

- حرام يمة لو كانت أختي عايشة معنا.

- أختك وأنا بولدها صار معها نقص أكسجين عالدماغ، لو عاشت كانت رح تكون معاقة ربنا اختارلها الأفضل، ألف مرة حكيتلك هالحكي.

دخل عبادة مع سناء من باب الجامعة الخلفي، فهو لا يريد أن ينظر له الأقران كالشاب "البرنس" أو زير النساء، فهم لا يعلمون بأنها ابنه خالته ولا يعلمون أيضاً بأنه غير مهتمٍ بصحبة النساء، وصدقني لم أخبرك بذلك لتظن بأنه شاذ، بل كان محترماً جداً،

ولكن مشكلته النفسية دمرته، بل ودمرت أحلامه الوردية، كان فقط غير مهتم ويتمنى زيارة الطبيب، فلعلّ وعسى.

اخترقت الأجواء نظراتٌ من "سارة"، تلك الطالبة السمينة، والتي يتنمر عليها كل طلاب الجامعة، كانت طيبةً جداً، وكانت دائماً ما تحاول التقرب من عبادة، تستعير دفاتره والمحاضرات، كونه كان من أوائل الدفعة، كان يشعر بإعجابها، على الرغم من أنها لا تعجبه، ولا تنسَ أيضاً السبب الأساسي بأنه غير مهتم، كان جُلَّ اهتمامها بأن تلفت نظره فقط، كانت مستعدة لترك جامعتها وكل ما تملك، فقط لتنظر في عينيه كل صباح، لم يبقَ معها وقتٌ على أي حال، فكلاهما على وجة تخرجٍ هذا الفصل، وما زالت تحاول منذ أن كانا مراهقين في سنتهما الجامعية الأولى، لم تكن تضع المكياج، قد حاولت مرةً وضع الكحل لتزين عينيها، إلا أن أمهات "الجينز" الضيق في الجامعة تنمرَن عليها بقوة، كفتاةٍ نادراً ما تضع الكحلة فإن مظهرها سيكون مضحكاً ولا تشابة بين

كحل العينين، حلم حياتها كان أن تعمل عملية شفطٍ للدهون، وعلى الرغم من كونها سمينة، إلا أن ملامحها كانت طيبةً جداً، وقلبها كان يقطر عسلاً، وكان عبادة لا يقدر على كسر خاطرها، دائماً يعيرها دفاتره على الرغم من عدم اهتمامه.

أنهى عبادة وسناء إجراءات تسجيلها في الجامعة، وحالما حصلت على البطاقة الجامعية، كان بإمكانك رؤيتها تقفز في الأروقة والممرات.

- ما بدك تعزمنا عشيء نشربه عبادة؟ "طقطق" حلقي من العطش!

- لازم تعزمينا انتي على فكرة "كحلوان" التسجيل، بس يلا مش مشكلة.

وأثناء شربها وطلبها لأغلى أنواع العصير على حساب عبادة، أخبرته أيضاً أنها تشعر بالجوع، ولم تكتفِ بواحدة من "السندويش" بل تناولت ثلاثة، وأثناء عودتهما بالباص، دفع عبادة

أجرة كرسيها، والظاهر بأنه سيدفع الأجرة لباقي عمره، كونها تشيح بنظرها عبر الشباك عندما يقوم "الكونترول" بجمع أجرة الكراسي، مرَ أسبوع، أسبوعان، شهرٌ على هذا الحال، وسناء تأكل عرقه وشقاءه، حتى ملَّ من تلك "البلهموطية".

- يمة.... مش على أساس يقعدوا عنا أسبوعين؟ إلهم أكثر من شهر عنا.

حتى رسوم الجامعة مش عارف كيف أدفعهم للفصل الجاي.

- يا حبيبي شو أعمل، خالتك بتحكي إنه بيتنا أقرب على الجامعة من قريتهم، مشان بنتها سنا....

- طيب يا أمي أنا مش مجبور أصرف على بنتها، أستغفر الله العظيم بس.

مرت ساعاتٌ على ذاك الحوار، وفي ذات المساء أصيبت أم عبادة بجلطةٍ دماغية، نقلت على أثرها للمشفى، وعبادة وخالته وابنه خالته في ذات "البيك آب" الخاص بجارهم، يركبون معها

للمستشفى، منهم من كان خائفاً على أمه بصدق، ومنهم من كانت خائفةً على أختها وتذرف الدموع، ومنهم من كانت تمثل الحنان الحزين، وتحشر يدها في كوم لحمهم داخل البيك آب لتُخرج هاتفها وتتفقد إشعارات مواقع التواصل سريعاً.

لا تقلق على أم عبادة، فهي أقوى مما تظن، ولقد تحملت ورأت الكثير في حياتها، وصحيحٌ بأنّ الطبيب أخبرهم بأن حركتها ستكون خفيفةً في الأطراف اليمنى من جسدها، إلا أنها سوف تعيش، وسوف تتحسن مع الأيام، ولكن لا بدَ لها من استخدام الكرسيّ المدولب في الأسابيع الأولى، كان كل ذلك حجةً ممتازةً للقدر لجعل خالة عبادة وسناء يبقيان عندهم لأشهرٍ غير معلومٍ عددها بعد.

لقد كانت تجدُ صعوبةً في الذهاب للحمام، وعبادة مع أنه ابنها، إلا أنه شاب، وكانت تخجل من فكرة أخذه لها للحمام، فكانت أختها تعاونها على قضاء حاجتها، وفعلاً كان وجود الزائرين ضرورياً، بل

ضرورياً جداً، فكفَّ عبادة عن التضايق المستمر وبدأ يعتاد على وجود خالته وابنتها، بل إن خالة عبادة أيضاً استلمت موضوع شراء الأغراض وحاجيات المنزل من السوق، وتقوم بحمل كل ذاك للمنزل، كون عبادة مشغولٌ بدراسته وعمله، بينما كانت سناء مشغولةً بجامعتها وطلاء أظافرها وكيف لها أن تبدو جميلة.

كان كل ذلك مهاماً صعبة التطبيق لخالة عبادة، إلا أنها برعت فيها، بالإضافة للطبخ والنفخ وترتيب وشطف المنزل، ولقد برعت في تطبيق النظام الحاني للأم المقعدة، فأصبحت تنتظر عبادة حتى عودته من عمله منتصف الليل، بعد أن تكون والدته قد غفَت ونامت وهي تنظر لمقبض الباب تنتظر تحركه لتفرح بعوده وحيدها الغالي، تشتاق لتكون مستيقظةً ويقبِّل يديها ورأسها قبل أن يبدأ في الدراسة منتصف الليل، وعلى الرغم من نومها، إلا أن عبادة كان يقبِّل يديها، مع أنها كانت لا تشعر بذلك، ليس بسبب نومها، فقد

أخطأ الطبيب التقدير وبدأت بفقدان الإحساس التدريجي بالأطراف.

- خالتي يا سناء، يا سنااااء... سنااااء، يا خالتي مشان الله تعالي شوي.

وبعد قدومها والصراخ....

- خير؟ شو بدك؟ ليش صراخك معبي الحارة؟

- يا بنتي مشان الله بدي أروح للحمام، وأمك مش هون، راحت عالسوق تشتري أغراض، وعبادة مش هون بشغله.

- هففففف.... أنا ما بقدر أشيلك على فكرة!

- ساعديني طيب يا بنتي، أعطيني دلو أو أي شيء.

- قرف، بدك تعمليها بالدلو؟ رح تعبي البيت روائح!

- يا بنتي أبوس أيدك، والله كثير متضايقة، مشان الله يا حبيبتي.

- طيب شوي، تلفوني برن، بدي أشوف مين وأرجعلك، بس دقيقتين وراجعة.

- يا بنتي مشان الله يلا، ااخ يا بطني، ما تطولي علي يا خالتي.

ذهبت والظاهر بأنها لن تعود، وأم عبادة تتحقرص على كرسيها المدولب، وبعد أن حاولت النهوض، سقطت من على الكرسي، لم تسمعها ابنه أختها، فلقد كانت تضع سماعات الأذن وتسمع موسيقى أمريكية صاخبةً وترقص أمام المرآة، غزوٌ للأفكار الغربية ممزوجٌ بالحقارة أثناء تركها لخالتها ممددةً على الأرض وبطنها يعتصر.

عاد عبادة من عمله، وتلاقى مع خالته وسط الحارة، وحمل معها الأغراض للمنزل....

- والله يا خالتي إحنا كثير بنغلبك معنا و...

- لا يا خالتي، أنا مثل أمك الله يعافيها ويشفيها، ما تحكي هالحكي، الله يعلم قديش بنحبكم...

- والله يا خالتي إحنا اللي بنحبكم أكثر، وجداً مبسوط بقعدتكم عنا!

- أنا يا عبادة حبيت الحارة كمان مش بس إنتو، وما إلي خاطر أطلع منها، وأمك هسا محتاجيتني.

أنا بفكر أبيع البيت تبعنا، وأسكن معكم وبنتقاسم حقه وبنشتري شو ناقصنا.

وعلى الرغم من أنها طيبةٌ حنونة، إلا أنها تحيك آخر خيوط المصاهرة...

- إعملي شو ما بدك يا خالتي، إحنا مبسوطين فيكم، ومرتاحين معكم والله يديم علينا السعادة ويشافي أمي يا رب.

- الله يرضى عليك يا عبادة، ويرزقك الزوجة الي تسرَ قلبك وخاطرك.

- فوتي خالتي، تفضلي.

بعد أن فتحوا باب المنزل، ووسط تزاحم أكياس المونة خلال الباب، كان البيت هادئاً جداً، وبعد مناداة سناء طويلاً، لم ترد سناء، كانت غارقةً في نومٍ عميق، والسماعات الصاخبة في أذنها، تسمع الانحراف الفكري، وعقلها الباطن يخزن تفاهات ما تسمع.
مرميةٌ على باب غرفتها وجدها عبادة، مغمىً عليها والدم يسيل من رأسها بعد ارتطامه بالأرض، ورائحةٌ فظيعةٌ تملأ المكان، كانت والدته بحال مزرية، ثيابها متسخة، أقرب للموت من الحياة، وضع عبادة رأسها بين ذراعيه وسط بكاءٍ شديد، وصراخٍ من خالته على ابنتها، والتي كانت تعضُ شفتيها ليس حزناً ولكن خوفاً من غضب عبادة وأمها التي شعرت بالعار مما فعلته ابنتها، وأثناء إيقاظهم لأم عبادة ومسح دمها والأوساخ كان عبادة يستشيط غضباً...

- ليش تتركيها توقع عالأرض وتوسخ حالها هيك، لييييش؟

- والله ما دخلني، أنا آسفة والله، آسفة آسفة.

- شو بينفع أسفك؟ آاه؟ على الأقل ردي المعروف بالمعروف.

- خلص يمة يا عبادة، هي نسيت بس وكانت تدرس عندها امتحان، ما سمعتني لما ناديتها مرة ثانية.

اختلت خالة عبادة بابنتها، فشدت شعرها بقوة....

- آااخ، يمة لا، شعري آااخ شعري!

- إنتي وحدة عديمة إحساس، ليش ما ساعدتي خالتك، سودَتي وجهي، الله يسوِد وجهك.

- ما دخلني أنا، بعدين ناقصني قرف ووسخ أنا؟

- ولك عالأقل فكري بحالك، كيف عبادة رح يقبل يتجوزك بعد الي صار؟

مش قلتلك خليكي كويسة معه ومع خالتك؟

- هاااا..... طيب خلص خلص، اليوم بروح بعتذر منه ومن خالتي، والك أكون خدامة عندهم كمان.

- مش اليوم لا، هسا بدك تروحي وتبوسي ايد خالتك.

- أبوس أيدها!

- بدك تبوسي أيدها ورأسها، وإذا لزم الأمر بدك تبوسي رجلها كمان، فاهمة وله؟

- طيب يمة خلص تزعليش، يمة أنتووو...

- إحكي شو فيه يا سناء.

- إنتو نظفتوها منيح خالتي؟

- إخرسي يا قليلة الأدب، يا ريت كنت نايمة عند أهلي ولا حبلت فيكي هديك الليلة.

وبعد أن اشتغل شدُ الشعر للحظات، كان عبادة يقَبّل أمه ويخبرها بأنه سيترك جامعته، ليهتم بها أكثر، ولا يتركها تحت رحمة

"الخانوم" سناء، فتدخل سناء وتعتذر من عبادة، وتخبره بأنها ستكون أحرص وكادت تقَبيل يده ليسامحها.

سحبها عبادة خارج الغرفة بسرعة، وأمسك بكتفيها بقوةٍ كبيرة، ونظر في عينيها مباشرة، وسرحت هي في جمال عينيه والحاجبين...

- إسمعي يا سناء، هاي أمي اللي ما إلي غيرها، وأنا مستعد أعمل الويلات باللي بزعلها.

هزها من كتفيها وما زالت سارحةً فيه، جذب سترتها وما زالت سارحةً فيه....

- يا سناء أنا مستعد أعطيكي مصروف الجامعة كل يوم، مستعد أشتريلك أواعي، مستعد أعطيكي شو ما بدك بس المهم أمي، مشان الله ساعدينا، اهتمي فيها شوي وإلك شو ما بدك.

- تزوجني!

- شوو؟!

- ما سمعتني؟ بقلك تزوجني، أنا كل يوم بتخيل عيوونك وكل شي فيك قبل ما أنام.

ليش ساكت، أنا مستعدة أكون خدامة إلك ولخالتي طول العمر، بس تزوجني.

وضعت يدها على وجهه، ضعف قليلاً ونظر إلى شفتيها كأنهما التوت البري، ولكنه استجمع قواه وصاح في وجهها، صياحاً يليق بوقاحتها واستغلالها له ولوالدته والموقف، صوت خبطة الباب يخبرك بأن عبادة خرج غاضباً باكياً، لا يدري، هل يبكي على والدته، أم يبكي على عرض زواجٍ يرفضه بسبب مشكلته.

مرَت ساعتان وعاد عبادة، شبِعاً من دموع عينيه، ودقات قلبه ما زالت سريعةً كفاية لدَق عنق سناء إن تكلمت، ولكن خالته لاقته بالأحضان.

- عبادة، يا حبيبي تسامح سناء، والله ما كان قصدها تزعلك وتزعل خالتها.

- خلص يا خالتي حصل خير، أنا بس زعلان على وضع أمي، ما تقلقي بروق لحالي.

- فوت شوف سناء، بتقص لخالتها أظافر إيديها ورجليها.

- تعبان يا خالتي تعبااان، بدي أدخل أنام شوي، وأقوم أدرس كلمتين.

- براحتك يا حبيبي، الله يوفقك ويوفق سناء ويرضى عليكم.

بدأ عبادة يلمس تحسن والدته، وقد بدأت بالسير على "الباكور" وتركها للكرسي المدولب، وفرح عبادة كثيراً عندما تركت الباكور متجهةً للمطبخ، وكانت أزكى"قلاية بندورة" يتناولها في حياته، جلست أم عبادة معه ومع أختها وابنتها يتناولون الإفطار جميعاً.

- على مهلك يا عبادة، هلأ بتغص!

ضحك الجميع على فم عبادة المليء بالطعام، وخرج الشاي من أنفه أثناء الضحك، والظاهر بأن أجواء الضحك والتسلية، كانت مناسبةً لشيءٍ ما.

- يمة يا عبادة، بدي منك ما تفشلني، وبدي أحكي قدام الجماعة. أنا بدي أشوف ولادك يمة، شوف شوف فلقة القمر هاي ما أحلاها.

- تسلميلي يا خالتي، إنتي الي عسل والله.

نظرت سناء في عيون عبادة مباشرة، وهي تتناول لقماً صغيرةً لا تسمن ولا تغني من جوع، لتبان بمظهر الفتاة " الكيوت" أمامه.

- يمة أنا بعدني مش جاهز، ولسا بالجامعة وإنتي عارفة البير وغطاه!

- عبادة، تطلع فيني، أنا مستعدة أعيش معك عالخبز والشاي!

هز عبادة رأسه متردداً حاسباً حساب أي كلمةٍ ستخرج منه، ففضل الصمت ورفض الكلام، وفي ذات المساء، وبعد أن خلدت خالته وابنتها للنوم، نادى عبادة والدته لغرفته، وكان يائساً بائساً ودموعه تملأ خديه.

- يمة أنا في عندي مشكلة، أنا ما بقدر أتجوز.

- لا يا حبيبي أنت كويس، بعدين أنت بحياتك ما كان عندك علاقات، كيف بتحكم على حالك إنك ما بتقدر؟

- يمة بعدين أنا مش ناسي كيف تعاملت معك هاي "الكرنيبة" لما كنتي مريضة.

- هاي لسا صغيرة يا إبني، وبتربيها على إيدك، وخالتك كويسه واهتمت فيني وقت مرضي....

- يمة أنا مش زلمة، إفهمي عليّ مشان الله، أنا مش زلممة!

- لا تعلي صوتك بلاش يسمعوك، قلتلك إنت صعب تحكم على حالك وأنت ما جربت....

- وبدك أجرب بسناء وأصير مهرج قدامها؟

- ما رح تصير ولا إشي، شوف البنت ما أحلاها، والله بتحرك الحجر، رح تدللك.

نفسيتك رح تصير ممتازة، وتعرف إنه ما عندك مشكلة أصلاً.

- معقول يكون ما عندي مشكلة يمة؟ معقول أشوف ولادي بركضوا حوليكي؟

- آه يا حبيبي معقول، ومن أول يوم لما تشوف الدلال، رح تشكرني وتحكيلي إنه ما عندك شيء.

- طيب يمة أنا بفصل التخرج ولسا مش جاهز، وكمان....

- أسكت، اتفقت أنا وخالتك، بكرة بدها تروح تبيع بيتها، ورح تدفع هي كل مصاريف زواجكم لبين ما تتخرج وتشتغل.

- بشوف حابكين القصة مزبوط يمة، أنا وين كنت عن كل هالحكي؟

سرحَ في سقف غرفته، فكر كثيراً في سناء، وجمال سناء، وعيون سناء وحتى صدر سناء، وكل ما كان يريده، هو أن يكون كلام والدته صحيحاً، وأن ينجح معه العلاج بدلال سناء ومفاتنها، ولربما فعلاً ليس فيه علة، ودلال سناء سيكشف له ذلك، جُلَّ ما تخيله بعد ذلك وطيلة الليلة، صراخ تلك الفاتنة في سريره.

يا لعقله السخيف، وعلى الرغم من كونه متعلماً، وليس من الضروري أن ينجح شخص متعلم في حفر ومطبات الحياة، فكم من متعلمٍ كان كالسندان الأصم لا يعرف كيف يدير نفسه، وكم من غير متعلمٍ مرَ عليّ وعليك، كان يدير نفسه، بل ومن حوله بإتقان، لم يملك عبادة الخبرة في التعامل مع النساء، فتعال إليّ يا عبادة، وتعلم من خبرتي، ليس المهم هو الصراخ يا غلام، فالعديد من النساء يصرخن ليخبرنك كم أنت قوي، كم أنت فحلٌ جبار، زيرٌ في فراشها، ولكن الحقيقة ربما تكون غير ذلك تماماً، ربما تكون مشمئزةً منك، وربما تصرخ لتزيد من رغبتك

وتنتهي سريعاً وتتركها لتنام، أو ربما تكون فعلاً فحلاً جباراً مثلي، تتكلم عنك بعض الجارات على درجات المنازل.

فاق عبادة على صوت "فيروز" تغني في الراديو، تتراقص معها سناء أثناء شطفها "حوش" الدار، وأخبرته بأن الفطور جاهز....

- شو هالأكل الزاكي؟ مقدوس ومربى؟

- آاااه، أنا عملت المقدوس يا عبادة، أقعد، رح أروح أنادي خالتي وأمي مشان يفطروا معنا، ما توكل ولا لقمة لحتى آجي.

لازم تطعمي خطيبتك أول لقمة من أيدك....

- ولك سناء! إحنا متى خطبنا؟

داعبت أنفه بمشاكسةٍ تجيدها المتسلقات...

- من أول ما شفتك بموقف الباصات قررت أخطبك، ودخيل هالعيون يا عبادة.

بدأ رأس عبادة يمتلئ بالمشاعر، وقد أحب ذلك بشدة، ونسي مشكلته وبدأ في التخيلات، تخيلاتٍ دفعته لتفحص جسد سناء في

المنزل وكانت هي فرحةً بذلك، يومان آخران، كانت خالة عبادة تناوله المال اللازم لمستلزمات الفرح من حلوى ومشاريب واستئجار أحبال الأضواء والكراسي لأهل البلدة، كان عبادة فرحاً جداً بذلك، حُدِّدَ موعد الحفل يوم الخميس وبقي أسبوعٌ على ذلك، وبدأت التجهيزات واشترى عبادة بذلةً أقل ما يقال عنها بأنها رائعة.

بدأت سناء أيضاً بانتقاء وتجريب الفساتين، واشترت فستاناً غالي الثمن، تقدم عبادة بإجازةٍ مدةَ عشرة أيام، وافق صاحب المطعم شريطة أن تُخصم الإجازة من راتبه، عرف أصحابه في الجامعة خبر زفافه القريب، فعملوا له "زفة" عريسٍ داخل حرم الجامعة، وكان ذلك يوم الثلاثاء، قبل يومين من حفل زفافه، وكانت هناك عيونٌ شبقة، تراقب الزفة بحبٍ وشوق، كانت تلك سارة، ذات الفتاة السمينة المعجبة تجلس قريباً منهم، وحال انتهاء الزفة، هم

عبادة بالخروج من حرم الجامعة، فأمسكت سارة يده من الخلف فالتفت لها باستغراب...

- شو في يا سارة، مالك؟ أنا آسف ما كتبت المحاضرات اليوم!

- ما بدي محاضرات ولا نيلة، من السنة الأولى بخبي مشاعري وبحاول أبينلك، وما عاد ينفع، بدي أحكي وبدك تسمع.

تسمَر عبادة في مكانه، مشاهداً للإحساس الصادق مُقارناً بينها وبين تلك البلهموطية التي سيتزوجها بعد يومين، تذرف الدموع على وجنتيها الممتلئتين....

- أنا بحبك يا عبادة، بحبك من زمان، ما كنت متخيلة أنو أشوفك عريس ولبنت غيري، كان نفسي أحكيلك من زمان، بس أنا جبانة.

جبانة أنا وضعيفة شخصية، وما قدرت أحكي إلا بعد ما فات الأوان وصرت لبنت خالتك يا عبادة.

- أنا آسف يا سارة، أنا ما كنت بعرف إنك بتحبيني، وحالياً ما بقدر إلا أتمنالك حياة سعيدة، والزوج الكويس الي أحسن مني.

واخترق الحوار صوتٌ حانقٌ على سارة...

- مين إنتي؟ ليش واقفة مع خطيبي وبتحكي معه؟

عبادة... مين هاي وليش بتبكي؟

- يا سناء أنا ما بدي منه شيء، أنا بس.....

- وبتعرفي اسمي كمان؟ إحكي شو بدك منه وله؟

- حكيتلك أنا ما بدي منه شيء، أنا ببكي لأنه رسبت بإمتحان بس، وأنا أصلاً عندي حساسية بعيوني.

أجيت أطلب المحاضرات من عبادة بس.

- روحي من هون روحي، ما عنا محاضرات، إحنا مو فاضيين نكتب محاضرات، عرسنا بعد يومين.....

جرَها عبادة من يدها وأخذها بعيداً، بينما ما زالت سارة تبكي بحرقة، وازداد بكاؤها عندما مرَت بعض التافهات من أمامها، واصفاتٍ إياها بالجاموسة الحزينة.

جاء اليوم المنشود، خميس الفرح، زفة العريس ولا بدَ من أن يكون ذاك اليوم رائعاً، فكل الناس يُزفون مرتين، مرةً بحفل زواجهم، ومرةً عندَ موتهم يُزفون للمقبرة، وها أنت ترى الكراسي مصطفة، والرجال يتناولون الحلويات اللذيذة، وتشرب النساء "الشربات" وكالعادة، فإنّ الحلويات لا تكفي عند النساء، فكلهن يأتين بشنطهن الضخمة، لتعبئتها من حفلات الأعراس، وها هو عبادة يتقافز بجانب سناء، وها هي النساء ترقص وترتع، ورمقت عبادة نظرةٌ حزينةٌ من بعيد، لفتاةٍ ضخمةٍ تبكي وراء الكواليس، سأقرب لك المشهد أكثر، إنها سارة، جاءت لتشاهدَ حبيبها بجانب أخرى لا تستحقه بنظر تلك الضخمة، أم أنها فعلاً لا تستحقه!

انتهت المراسم، وكما يقولون " راحت السكرة، وأجت الفكرة"، تزف النساء العروسين، مدخلاتٍ إياهم الغرفة الزوجية السعيدة، بسرير وخزانةٍ جديدتين، مشهدٌ دراميٌ عاطفي تشاهده في كافة المسلسلات، وخاصةً الشامية منها، مشهدٌ لإزالة الطرحة من على وجة العروس.

مشهدٌ يتفاجأ العريس فيه بأنّ زوجته التي يراها للمرة الأولى جميلةٌ جداً، مشهدٌ يُكرر كثيراً، فحفظناه وحفظنا الحوار الذي يجري فيه، ولكن مشهدنا ها هنا مختلف، فإن عبادة يعرف شكل عروسه، فلقد كان يتفحص جسدها كما أخبرتك، ولا تنسَ أبداً بأنها كانت فرحةً بذلك لن أغير لك الكثير في المشهد، فها هو عبادة، يزيل الطرحة عن وجهها، وتنظر في عينيه مباشرةً، كبدايةٍ لليلة جريئةٍ جميلة، ستتكرر في نظرها هذة الليلة طيلة حياتها....

- بتعرفي إنك طالعة بتجنني يا سناء...

- وأنت كمان بتجنن... الله يحميلي إياك يا شيخ الرجال.

أعدتْ فنجان قهوتها برواق، وشمت رائحة القهوة بحب، ما زالت ترتدي قميص النوم بعد ليلةٍ صاخبة، رجل جميل صرفته قبل الفجر ومازالت تفكر في فتوته، ولم يوفرها الإمام فلاح، فلقد زارها بعد الفجر، غالباً ما كان يزورها بعد العِشاء، ففي نظره، بعد العِشاء، إفعل ما تشاء، لا نعلم ما كان بباله ليزورها نصف ساعةٍ بعد الفجر، جلست برويةٍ أمام التلفاز وشعرها منكوش، لم تمشطه بعد، فمن عادة الإمام شدّ شعرها بقوةٍ أثناء النزوات، تُقلب قنوات التلفاز بين الأفلام القديمة والأغاني والأخبار المعادة، وأثناء تقليب القنوات، توقفت للحظة على إحدى المحطات الإسلامية، وهناك قارئٌ بصوت جميلٍ يقرأ.....

- إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) سورة النور.

خفق قلبها بشدة، لاحظ فنجان القهوة يتأرجح في يدها وقد سُكبَ جزءٌ منه في صحن الفنجان، وضعت الفنجان على الطاولة، وكان ما يملأ تفكيرها هو ذنب إغواء زوجة النجار، والخوف من النجار نفسه، صاحب اليدين الفولاذيتين، دفعها الخوف لتغيير القناة مباشرة، وقد غيرت أجواءها بإحدى قنوات الأغاني الرخيصة، وجلست تنظر لتلك المغنية التي تتسامر وتتحرش بثلاثة شبانٍ عاريي الصدر.

صدقاً أنّ هؤلاء المخرجين نوابغٌ في دبِ الشهوة في قلوب ضعاف النفوس، ترى الكاميرا تقرب لك المشهدَ لتشاهد شعر صدر الشبان، بل ومنحنيات الفتيات، يختارون أجمل الأجساد، سيناريو محبوك يتعدى أغنيةً لفتاةٍ تلاطف الرجال، مؤآمراتٌ خارجية تقاوت وتجبرت حتى طبَعوا الموضوع، ليصبح مؤامراتٍ داخلية، همها هو الإغواء وكسب أموال المحرضين من الخارج، لتطبيع المجتمع ويصبح كل همه هو الانبساط والاستمتاع، وبالحديث

عن تطبيع المجتمع، فبإمكانك رؤية مواقع الأفلام الأجنبية، فإن مشاهد الجنس أصبحت موضةً قديمةً اعتادها الناس، فهذا زوجٌ وزوجته يشاهدان فيلماً تتخلله القبلات الساخنة، تشيح الزوجة نظرها في الفيلم الأول ويتفرج الزوج، ويتفرج الزوج وتسترق زوجته النظرفي الفيلم الثاني، وينظر الاثنان صراحةً في الفيلم الثالث، فتبدأ الزوجة بالتفكير بعد أن يقضي معها زوجها خمس دقائق متوسطة السخونة، في كون زوجها لا يقبِّلها كتقبيل بطل الفيلم لحبيبته بجوٍّ رومنسيٍّ عميقٍ، لم تعهده الزوجة من قبل.

أصبح الجنس ومشاهِده موضةً أكل الزمان عليها وشرب، تعدى الموضوع ذلك ليصل إلى مشاهد الشذوذ الجنسي الفاجر، يكاد لا يخلو فيلمٌ من تلك المشاهد الفظيعة، رجلٌ ينام مع رجل مثله، امرأة متزوجة تكره اقتراب زوجها منها، وتنتظره ليذهب لعمله، فتزورها جارتها التي تفضل أكثر صُحبة النساء، كان مخرجوا الأفلام يجدون صعوبةً في إقناع بعض الممثلات بتمثيل المشاهد

الجنسية، ولكن تلك الصعوبة اندثرت وبإمكانك البحث عن أروع الممثلات الأجنبية في نظرك، والتي يعتبرها البعض أيقونةً للفن، تبدأ بالتعرِي لوحدها على مواقع التواصل، بعد أن بدأت "كومبارس" ولم يستلطفها الجمهور وحصلت على تقييمٍ سيّئٍ، تظهر صدرها وفخذيها، بل وأكثر من ذلك، لتُري مخرجي الأفلام بأنها مستعدةٌ لتمثيل مشاهدَ جنسيةٍ كاملة، مستعدة ليحتضن أحدهم جسدها الممشوق، بل وتجلس مع زوجها في بيتها لمشاهدة فيلمها، ليُعجَب هو بدورها وفلانٌ يمسك بخصرها ويجذبها إليه، في مشهدٍ مليءٍ بالورود المسقية بماء الدياثة.

أكملت أم ملحم فنجان قهوتها، وقد تذكرت تهديد الإمام فلاح، قبل أن يخرج من بيتها بعد الفجر، بأن تبدأ سريعاً بتنفيذ خطة الإغواء للجارة المسكينة، مُحبة زوجها.

- ما تنسي يا أم ملحم، اليوم بتعزميها على قهوة هون ببيتك.

- طيب فرضاً ما قبلت تيجي!

- والله هاي مسؤوليتك، وأنا وكلتك بالموضوع.

إنتي عارفة شو رح يصير إذا ما نفذتي الموضوع.

- عارفة، خلص عارفة... ما تضَل تذكرني.

- كيف غرفة النوم يا أم ملحم، مريحة عليها النومة صح؟

- الزباين مبسوطين عليها، كثار منهم " ختيارية" مثلك وما بقدروا يعملوا شيء لولا فرشة التخت بتهز لحالها!

- أنا صرت ختيار هسا يا أم ملحم؟

- متى بدك تحذف الفيديوهات يا فلاح؟

- بس تجيبيلي جارتك يا ست، وإلك تكوني رضيانة.

- وفكرك جارتي رح تكون مبسوطة بهالحكي؟

- إنك تجيبيها وبس الآن، هو مربط الفرس، المهم اعزميها على قهوة اليوم.

بدي علاقتك فيها تصير قوية، واتركي الباقي عليّ وما تحكيلها حالياً ولا شيء.

بدي أروح أنا، قرب يطلع الضو.

أغلقت الباب خلفه، والتفت الإمام بعد الإغلاق بقوة.

- الله يكسرك يا فلاح، ويفرجيني فيك يوم.....

قامت ولبست أم ملحم عباءتها ومشت لبيت زوجة النجار، الذي كان في دكانه، يصنع طقماً من الكراسي، لأحد ذوات البلدة، دُقَّ الباب دقاتٍ ناعمةٍ كالحرير، زوجة النجار تشطف "حوش" المنزل، فتحت الباب بعد أن وضعت ثوب الصلاة على رأسها، ثوب الصلاة، ذلك اللباس السريع جداً بالنسبة للنساء، ترتديه بعضهن للصلاة فقط، ومنهن من تجوب به الحارة، بل تعدى الموضوع ذلك للذهاب به للتسوق، أو زيارة الأقرباء.

- أهلاً أم ملحم، تفضلي فوتي.

- بعدين معك يا جارتنا، كل مرة أنا اللي لازم أفوت!

استنيتك كثير لتيجي لعندي، أنا زرتك مرة ولازم ترديلي الزيارة.

سكري الباب وتعالي، عازمتك على قهوة عندي بالبيت.

- خلص صرتي بالباب يا أم ملحم، مش حلوة نشرب عندك القهوة وإنتي بباب بيتنا.

- خلص، هيني سابقتك ورح أحط الركوة عالنار، ما تتأخري.

- خلص ماشي، رح أطفي تحت الطبخة وألحقك.

جلستا أمام التلفاز تحتسيا القهوة، وبعد أن خلعت زوجة النجار ثوب الصلاة ذو الاستعمالات الكثيرة، نظرت لها أم ملحم بتمعن، ما هذا الشعر الناعم الطويل؟ ما هذا الخصر الممشوق؟ أفكارٌ تملأ نفسها بين غيرةٍ من الكيان الأنثوي الجالس أمامها، واستغرابها من عين فلاح التي اقتنصت تلك الفاتنة، تعدى الموضوع النظر، أمسكت أم ملحم خصلةً من شعرها برقة، تفحصتها من فروة الرأس حتى آخر ذيل الفرس...

- ما شاء الله! شو هالشعرات الحلوين جارتنا، احكيلي شو نوع "الشامبو" اللي بتستخدميه؟

- القصة مش بالشامبو يا أم ملحم، الشامبو تبعي من دكان الحي، شامبو عادي.

- زوجي الله يحفظه بمشطلي شعري كل يوم وبحط عليه من الزيت اللي بشتريه من عند صاحبه العطار.

- ضروري تجيبيلي إسم خلطة هالزيت ضروري.

ربما طلبت اسم الخلطة لتقوية شعرها الذي يشده فلاح دوماً، وربما طلبته لغيرتها من حب النجار لزوجته، وربما لتُعجب فلاح وزبائنه، ولكن دعنا نكون صريحين، لو امتلكت كل زيوت الدنيا، فهي بعيدةٌ عن امتلاك من يمشط شعرها بحبٍّ وحنان، كلّ مَن يشدُّون شعرها طالبين للفرج والنزوة فقط.

- ولا يهمك أم ملحم، ما رح أجيبلك إسم الزيت بس، رح أخلي زوجي يجبلك علبة منه الك.

- بس ما تحكيله إنه الزيت إلي، بستحي جارتنا!

إنها تخجل من ذكر اسمها أمام النجار طالبةً الزيت، ولكنها لا تخجل من التعري أمام نزوات الحقراء ومنهم فلاح وزبائنه، لا تستحي من أن تعاشر في اليوم أربعة رجال، ولا تخجل من الرقص عارية الفخذين وال....

- لا لا، ولا يهمك، ما رح أحكيله.

بحكيله العلبة اللي عندي خلصت وبدي غيرها بس.

- عفارم عليكي جارتنا، لازم يكون في أسرار بين الجارات!

ضحكت ضحكةً مستفزة، لم تنتبه لها البلهاء التي ترتشف آخر فنجان قهوتها، وضحكت عندما ابتلعت القليل من تفل القهوة، ضحكت معها أم ملحم وما زالت تنظر لشعر جارتها بحسد....

- عن إذنك جارتنا، أنا صار لازم أرجع عالبيت.

الأولاد قربوا يرجعوا من المدرسة وحرام بكونوا جوعانين.

- مع إنه لسا بكير بس على راحتك حبيبتي.

استنيني دقيقة، ما بطول.

- وين رايحة يا أم ملحم؟

- ليش بصلتك محروقة؟

- خذي هذا الدبدوب، أعطيه لإبنك الصغير، هالدبدوب كان لإبني.

أعطيه إياه واحكيله هذا من أم ملحم، بلكي عالأقل بطل يزورني بالحارة!

- بزورِك، أنا بفرجيه هال.....

- لا لا، ما تحكي معه أمانة، بس أعطيه اياه، الأطفال بدهم حنيَة جارتنا.

- يسلموا دياتك أم ملحم، دايماً مغلبينك معنا.

صحيح يا أم ملحم، ولادك وين؟

- اتركيها لربك جارتنا، بس بلشوا يكبروا، أخذهم جدهم ليعيشوا عنده، ختيار الجن هذا شغل مشاكل بس.

- الله يجمعك فيهم حبيبتي، الله يعطيكي على قد نيتك!

يلا استودعناكي حبيبتي.

- اللّٰهُمَّ آمين، مع السلامة جارتنا.

كانت تلك الزيارة مليئةً بالمحبة في الظاهر، مليئةً بالمكائد في الباطن، من فنجان القهوة وحتى الدبدوب، عادت زوجة النجار فرحة، فقد غيّرت أجواء الملل خاصتها، وحيدةً في بيت زوجها، بين غسيلٍ وتنظيفٍ وطبخٍ فقط، جلست أم ملحم تفكر في أنها أصبحت شيطاناً أمرد، تطيع شهوات الإمام فلاح، بينما تخالطها أفكارٌ أخرى، تفكر في شعر تلك الأنثى، فدعاها شعور الغيرة لترك خطيَة جارتها ومجاراة الإمام في اجتذاب زوجة النجار للهلاك، شعور الانتقام ليس موجةً دائماً لمن تعرض لك بالأذى لربما

يكون غيرةً من نجاح، أو تفصيلاً نراه في غيرنا بعيداً كل البعد عنا، أو حتى بسبب شعرٍ ناعمٍ طويل.

عاد فلاح وزار أم ملحم بعد العشاء، وناولته غلةَ اليوم بعد أن أخذت حصتها....

- بس هيك كثير قليل يا أم ملحم!

- كل اللي أجوني اليوم زبونين، وطفرانين كمان.

- التسعيرة ثابتة يا أم ملحم، واللي ما معه ما بلزمه!

صحيح شو صار معك بخصوص جارتك الحلوة؟

خبريني، كيف تعاملتي معها؟

حلوة كثير بدون ثوب الصلاة اللي بنشوفها فيه بالحارة؟

- شو عرفك إنها شلحت الثوب عندي يا فلاح؟

- كل النسوان بخلعوه بس يفوتوا البيت، ولا أنا غلطان؟

ما أنا عندي زوجة وإخوات وبشوف!

- تطمن، شعرها واصل لآخر ظهرها، وحلوة كثيييرر.

- اوصفيلي كمان كمان.

- إحذف الفيديوهات اللي عندك و بحكيلك!

- رح أفرجيكي إني ابن حلال ورح أحذف كم واحد مشانك.

- إنت ابن حلال يا فلاح؟!

- إخرسي، بطلت أحذفهم، فعلاً إنه النسوان ما بنعطوا عين!

- خلص خلص، أبوس إيدك، إمسح كم واحد وإلك أوصفها مثل ما بدك.

- رح أحذفهم، بس إذا بتغلطي كمان مرة رح أقص لسانك وأطعميه للكلاب الجوعانة.

- أمرك، ما رح أغلط خلص، بعدين إنت طعميتني كلي للكلاب، وقفت على لساني!

- أستغفر الله، قومي البسي لنا شيء حلو نروق دمنا!

- ما في، مش إنت عاجبتك مرته للنجار؟

خليها هي تلبسلك!

- ولو، إنتي الأصل يا أم ملحم، أنا بدي أجيبها تشتغل تحت إيدك يا خبرة!

- شو بدك، الأحمر ولا الفوشي؟

عاد أطفالها للمنزل، تسكب زوجة النجار لهم الغداء، وتبعث ابنها لدكان أبيه، حاملاً له "المجدرة"، تساعدها ابنتها في تنظيف الصحون، لم تكن تلك الفتاة ممتازةً في المدرسة، ولكن كل المعلمات يشهدن لها بالأخلاق والأدب، تشبة أمها كثيراً، بنفس الشعر ولون العينين والبشرة، تشبهها بأخلاقها حتى، وأثناء تنظيف الصحون....

- ماما حبيبتي، بكرة جدتك جاية تقعد عنا كم يوم، بدي اياكي تكوني شطورة. بدي تخلي بالك منها منيح.

- حاضر ماما، ولا يهمك، أنا أصلاً بحب الجدة، كثير مبسوطة إنها جاية عنا.

كانت ناضجة، تشعر من خلال كلامها بأنها شابة، في مرحلة المراهقة كانت، ولكن تصرفات المراهقات كانت بعيدةً عنها كل البعد، تحبها جميع معلمات مدرستها إلا واحدة، لم تكن الأولى بين طلبات الصف، لم تكن الثانية ولا حتى العاشرة، برغم

طيبتها كانت تلك المعلمة تناديها بالمسكينة والضعيفة، أو حتى الساذجة، كانت معلمتها ومشرفة صفها، التي تفيض المدرسة بشرِها المطلق، كلماتُها مسموعة وآراؤها مقبولة، متنمرةٌ والتنمر عنوانها، عالمها هو التحكم والسيطرة، التجريح ورمي الكلمات السامة كان أسلوبها، تحبّ التنمر على كلِّ مسكينةٍ من الفتيات، وها هي تدخل المعلمة باب الصف، مثّلت الطالبات حبّها عبر الترحيب الذي غالباً ما يستمر أكثر مما تستحق، تضحك حينها وغرورها يقتل تلك الفتاة وغيرها، ابنه النجار، ذلك الغرور الذي يحطم معظم فتياتٍ عجزنَ عن التكلم في حضرتها، كان ذلك اليوم هو يوم حلِّ المسائل على السبورة، بدأت المعلمة تُخرج الفتيات بالدور، وكلهنَّ كُنَّ مجتهدات، ومع أنّ اجتهادهنَّ لا يعجبها إلا أنّها تمثل السعادة، تنتظر فتاةً لتخطئ، لتُضحك الجميع عليها، لم تكن مجتهدة، ولا تعلم كيف تُحل المسائل في ذلك الكتاب الفظيع، على الرغم من أنّ والدتها تدّرسُها يومياً، إلا أنّ الناس

قُدراتٌ وأجناس، خرجت طالبة وحلّتْ مسألتها، خرجَت أخرى وحلّت مسألتها، خافت من الإحراج، خافت أن تريها المعلمة المتنمرة أسنانها المتباعدة، اقترب دورها، عددٌ قليل من الفتيات ويحين، قامت بعدِّ الفتيات والمسائل وعرفت أي مسألةٍ ستكون من نصيبها، بإمكاننا أن نسمي ذلك بالذكاء وقت الشدّة والعَوز.

تركت زميلتها تَحلّ المسألة لها، فحفظتها عن ظهر قلب، من تأتيه الفرصة ليكون مجتهداً ويرفض؟ حتى لو كان ذلك بنظر تلك المتنمرة، جاء دورها فخرجت ضاحكةً لاهية، فالمسألة لم تُخيّب ظنَّها وكانت من نصيبها، أمسكت "الطبشور" بثقة، كتبت المسألة على اللوح وأرادت أن تبدأ الحل، إلا أنّ المعلمة فاجأتها ومسحت اللوح، واختارت لها مسألةً أخرى، صُدمت الفتاة ولم تعرف الحلَ، أُحرجت، ضحكت فتيات الصفِ بسخاء، ولم تُخيّب المعلمة ظنَّها، لقد أرتها أسنانها المتباعدة، رغبةٌ جامحةٌ لدى الفتاة بالصراخ،

ولكنها لا تقوى على ذلك بحضرة المتنمرَة، دخلت مقعدها وكان الصف أشبه بالحارة، وبكلِّ حقارة:

- يا فتاة، لقد أخذت صفراً بجدارة.

كان والدها ما يزال في بدايات تشغيل دكانه، أوضاعهم المادية فوق الصفر بقليل، كان ما يسمى بمريول المدرسة مهترئاً، لا بأس فقد مرَّ ذلك المريول على أجساد فتيات الحيِّ قبلها، أحياناً كان الجيران يعطونهم الثياب التي تصغر على أبنائهم، يصنع والدها الأثاث من الخشب الفاخر لأصحاب المال والسلطة، ومن الخشب الرخيص لمن يطلب ذلك، مربحه قليلٌ ليجذب الزبائن، ولا تظنّ أنّ أصحاب المال والنفوذ يدفعون بسخاءٍ مقابل الخدمة والتفصيل، منهم من هم مستعدون لدفع الآلاف في فراش عاهرة، ولا يدفعون للأجير أجرهُ، لا قبل ولا بعدَ أنّ يجِفَّ عرقه، تندب الفتاة حضها طالبةً من والديها مريولاً جديداً، ولا مال للترفُه بمريولٍ جديد، الصبر هو الحل الوحيد، ارتدت المريول أمام المرآة، سخطت عليه

وتحركت فيه بقوة، فشقَّ المريول وكانت تأمل بشراء مريولٍ جديد، فذاك مشقوقٌ ولا حُجة.

لم يشترِ لها والدها مريولاً، بل أخرجت أُمها "كراراً" لخيطٍ أبيض، شعور بالقهر جعل الفتاة تخبئ المريول وحلفت أن لا تخيطه نامت وحلمت بمريولٍ جديد.

أشرقت شمس يومٍ جديد، بقيت الفتاة نائمة، وماذا ستفعل غير النوم بوجود مريول مشقوق، قامت أخيراً بعدَ إصرارٍ من والدتها، ولبست نفس المريول المشقوق، لم تدرِ ما تفعل، حارت وحارت، إلى أن لبست سترةً وجدتها أمامها مباشرة، عندما فتحت باب الخزانة، لبستها ولم تكن تشعر بالبرد، بل لتخفي عيوب المريول، خرجت من باب المنزل وأثناء خروجها:

- وين رايحة يا جدة بالبلوزة هذه؟ عالأسكيمو؟

ما زالت جدتها تضحك، حتى بعدَ خروج الفتاة بزمنٍ طويل، وكلما تتذكر الجدَة الموقف تضحك، دعك منها فكبار السن هكذا

دائماً، العرق يسيل منها والسترة كانت ثقيلةً تكاد تقتلها، الجوُّ حارٌ والشمس ساطعة، وزاد قهرها عندما مرَت بجانب فتاتين تتهامسان وتضحكان، ولربما لم تكونا تضحكان عليها، ولكن الشعور بالنقص دفعها للبكاء، وصلت الفتاة للمدرسة متأخرة، اصطفت الفتيات والمعلمة الكئيبة تنظمهن، فلتنظم كما تشاء، فهي فاشلةٌ في نظر مراهقات المدرسة، اللواتي جُلَّ أحلامهن هو الزواج، معلمةٌ فاشلةٌ تسكن لوحدها، ولم تتزوج بعد، هذا نصيبها ولكن سذاجة المراهقات تقول الكثير.

صوتها المشؤوم نادى الفتاة من بعيد، لم تتفاجأ الفتاة فدائماً ما تستقصدها....

- يا فتاة، ما هذة السترة؟ اخلعيها!

- حاسة بردانة يا آنسة، عليّ حرارة وتعبانة.

- كذابة إنتي، تعالي أشوف جبينك...

ما عليكي حرارة ولا مرضانة، بتكذبي؟

- آنسة، والله مرضانة والله.

- شو مخبية تحت البلوزة؟ مكياج ولا عطر؟

- يا آنسة مشان الله!

نحبت الفتاة كثيراً ولم يكن لنحيبها أثرٌ في نفس المعلمة، كانت مصرّةً على خلع الفتاة للسترة، وأخيراً خلعتها بوجةٍ عبوسٍ باكٍ، سادت المدرسة لحظة صمت، كيف لا يصمتون وهم يشاهدون بإمعانٍ ما كان يُخفيه بكاؤها، نظرت الفتاة للمعلمة، ولم تكن تضحك، ولم تُرِها أسنانها المتباعدة، كانت مُحرجة، وكانت الفتاة تنتحب أمام طوابيرٍ من الفتيات اللواتي سيتذكرن الدموع والمريول.

تقدمت المعلمة ووضعت يدها على كتف الفتاة، كان الأوان قد فات، وكان قلب إنسانٍ قد مات، وخلال ذلك اليوم، تعرضت الفتاة للكثير من التنمر، ولم تعطِ المعلمة أي حصة، مصدومةً حتى غادرت المدرسة، تغامزت الطالبات باستمرار، ولكن بعض

الطالبات جلسنَ بجوارها وبدأنَ بالمزاح وتغيير الأجواء، حتى أن بعضهن تقاسمن معها "الساندويش" الخاص بهن.

عادت الفتاة للمنزل، ولاقاها النجار والدها وزوجته، يضحكان أمامها بانتصار، يُخبئ شيئاً ما خلفه، وكانت هي بمزاجٍ معكر، أراها المريول وتوقعَ ردَ فعلٍ جميلٍ جداً.

- شوفي شو جبتلك يا بابا، مريول جديد وعلى مقاسك يا حلوة!

- شكراً بابا، ما كان في داعي تشتريه، كل المدرسة شافت مريولي المشقوق!

وبعدَ أن عاتب النجار زوجته لأنها تركت ابنتها تخرج بالمريول المشقوق، كانت الفتاة تأنُ في غرفتها، وما زالت الجدة تضحك بشبقٍ على فتاة الأسكيمو.

- الله أكبر الله أكبر...أشهد أن لا إله إلا الله.....

لو حضرت لبلدتنا، كنت لتسمع الآذان بصوت أسامة خمس مراتٍ في اليوم، بصوتٍ لطيفٍ خادعٍ، وعلى الرغم من أنّ الناس انقسموا بين مصدقين للقصة التي حدثت قبل زمن، وبين مُكذبين لها معتقدين بأنّه مظلوم، على كلِّ حال، فها هو يؤذن للصلاة، ولم يستطِع أحد اقتحام ساحته، لوجوده ملتحفاً بعباءة الإمام فلاح، صاحب النفوذ في البلدة وخارجها، بعضُ أهل البلدة كانوا يلقبونه "أبو المناسف" والبعض الآخر يلقبه "تبع الولاد"، إلا أنّ لا أحد تجرأ على نطق هاتين الصفتين أمامه، كان شرهاً جداً، لا يلوي ذراعه إلا لحم الغنم، الماعز الصغيرة المشوية كانت نقطة ضعفه، مستعدٌ لقص لحيته عن بكرة أبيها من أجل دجاجةٍ مشوية، أو قطعة لحمٍ محمّرة.

أحياناً ما كان أسامة يجعل ابنه صاحب الثلاثة عشر عاماً يؤذن للصلاة طيلة اليوم، ريثما يقوم والده بلم الدولارات تحت أقدام أم

ملحم فها هو موسم الحُفاة العراة قد عاد، وازدهرت أعمال فلاح في مؤسسة الدعارة خاصته، بقيادة أم ملحم، فانشغل فلاح ونسي زوجة النجار وإغوائها مؤقتاً.

تخدم أم ملحم في اليوم الواحدِ خمسة زبائن على الأقل، فهو موسمها المُحبب، الأموال تُغدق عليها من كل جانب، وفلاح يقاسمها، ولقد أخبرتك بأنّ القسمة لم تكن عادلة، فالإمام هو من يُحضر أغلب الزبائن المهمين ومن يدفعون الكثير، ودعك من زبائن الحارة وكل البلدة، فكلهم "منتوفين"، وكان أسامة يقبل دائماً بالفتات.

- أسامة، خليك بعد ما يروحوا الضيوف.... بدي أحكيلك موضوع.

- حاضر يا أم ملحم، بس شكلهم رح يقعدوا للصبح.

- سكرانين يا أسامة، وفلاح سكران معهم، وأنا اللي بتعب طول الليل.

- والله يا أم ملحم ما بعرف هم سكرانين من المشروب ولا من جمالك!

أي جمال هذا وقد بدأت تجاعيد أم ملحم بالظهور، ولكن لا بأس، فإن خصرها ما زال يستطيع الهزّ، فجهاز "ريختر" يستطيع قياس أعتى الزلازل، ولكنه بالتأكيد لن يستطيع قياس ذبذبات خصر أم ملحم، وإنّ الخبرة لتعلب دوراً، مهندسةٌ في اختيار ملابس الإغراء، واختيار إيقاع دقات الطبل الجميل، لتوقعَ بالرجال الذين جُلَّ حبّهم هو....

استيقظ الجميع من سكرات النبيذ وسكرات أم ملحم، التي حالما ينتهي الصخب، ترتدي عباءةً خفيفة، مفتوحةً من الأمام، تُظهر منها سيقانها وأفخاذها، لتُذكر الرجال عند الوداع بثمار القشطة

التي تحت العباءة، وليعودوا مجدداً تضع رجلاً على رجل، تُبيّن كلّ محظور، هَمَّ الزبائن بالخروج وودعهم فلاح خلسةً أثناء خروجهم من الباب الخلفي، ذلك الباب الذي لم يكن موجوداً في حياة زوجها المرحوم، لم يمكث الإمام أكثر، أخذ حصته من المال الحرام، وأعطى أم ملحم حصتها، ورمى على أسامة القليل القليل.

- يله يا أسامة بدنا نلحق نروح عالمسجد.

- أي مسجد يا شيخ؟ لسا الظهر ما أذن!

- معلش، جايني ضيوف من بلد ثاني وبدي أجالسهم في المسجد. عازمهم على الغدا كمان وتنساش إنت معزوم يا أسامة.

- معلش يا شيخ فلاح، أم ملحم حكتلي بدها توصيني على شوية أغراض.

بدي ألحق أجيبلها إياهم.

- شو يا أسامة؟ ومين بده يخدم الضيوف؟

بدك أنا أقوم أضيفهم القهوة وأجمع فوارغ صحونهم!

ثم تتدخل أم ملحم.....

- خلص يا أسامة، أنا ببعث أي ولد من الحارة يشتريلي الأغراض، خلص روح مع فلاح.

ظلّ أسامة "يتحرقص" تارةً ويفكر ويصفن تارةً أخرى، فماذا تريد منه أم ملحم؟ ولماذا أرادته وحده دون فلاح؟ لم ينتظر أسامة كثيراً، فبعد العِشاء، وأخبرتك بأنّ العِشاء بعده تفعل ما تشاء، ذهب بزيارةٍ خاطفة لبيت أم ملحم التي كانت تداعب آخر رجلٍ في قائمتها اليومية، والذي خرج بدوره فرحاً مسروراً، فأم ملحم تداعب الزبائن وترضيهم، وحتى لو كان آخر زبون لديها، فإنها تهتم به وتعطيه حقَه، مع أنها قد تعبَت من الزبائن قبله، ولكنها لا تأكل الحرام....

- خير يا أم ملحم؟ كنتي اليوم بدك أضل عندك، يعني لولا إني عارف إنك شبعانة رجال، كنت فكرت بدك...!!!

- لا تطمن يا أسامة، كنت بدي إياك بموضوع ثاني، في مصلحة إلي وإلك.

- يعني قصدك في فلوس؟

- حسك عينك يا أسامة فلاح يعرف بالموضوع.

إنت عارف قديش هو قادر وكهين.

- مش وقت نحكي عليه يا أم ملحم، خلصيني احكيلي شو بدك مني.

- خايف تحكي عليه قدامي، خايف أروح أحكيله يا أسامة؟

تطمن، لو بدي أحكيله شيء، كان حكيتله عن كثير شغلات قبل هيك يا أسامة.

- هاا، شغلات مثل شو؟

- مش وقته هسا يا أسامة، بدي تعرف بس إنك بأمان.

إنت مش ملاحظ يا أسامة إنه فلاح بوخذ أغلب الفلوس، أنا اللي بتعب طول الليل.

جسمي ذاب وتعب بسببه وسبب زباينه، حتى إنت ما بتوخذ إلا قروش.

- بس إنتي بتوخذي أكثر مني بكثير يا أم ملحم!

- هون المفيد، إنت ما بتوخذ شيء، وأنا ما بتعجبني القسمة تبعته.

- طيب شو بدك نعمل مثلاً؟ نقتله!

- يا ريت أقدر أقتله وأشرب من دمه كمان.

- شوف يا أسامة، بدي أصير أشتغل لحسابي لحالي، وأنت رح تساعدني.

والفلوس بالنص بيننا، إصبر سنتين وإلك تلعب بالمصاري لعب.

- طيب كيف فلاح ما رح يعرف بهالشيء، بعدين فلاح حكالي عن الفيديوهات اللي على تلفونه.

أتوقع فيديو واحد رح يجيبلك المتاهات والقتل!

- والله يا أسامة كلها موتة، وأنا بطلت تفرق معي، على إيد فلاح أو غيره.

كلنا رح نموت بالآخر يا فلاح، أنا بدي أصير أطلع عالشارع أجيب زباين.

إنت عارف الرجال مجرد ما شافوا وقعوا، وإذا وقعوا مصاريهم صاروا إلنا.

إنت عارف الرجال مثل الأطفال، إذا شاف الشكلاتة بصير بده يذوق، وإذا عجبته الشكلاتة رح يرجع!

بعدين فلاح ما رح يعرف إلا إذا حدا حكاله!

- طيب ليش بتزوريني هيك؟ أنا ما رح أحكيله، ما بكفي عاملني خادم إلله ولزباينه مشان كم قرش!

- ركز معي يا أسامة، إحنا بوقت انتخابات برلمان، والشاطر اللي بده يرجع لقريته، ويفت عمله مشان الأصوات!

- طيب شو دخل الإنتخابات بموضوعنا؟

- يا غبي، هذول عبادين مال ونسوان بس، روسهم محشية تبن، كل همهم العزايم والسهرات وال.....

وإحنا أهل الكيف يا أسامة، ولا نسيت؟

- ما نسيت، هو اللي بجربك ليلة بنساكي يا أم ملحم؟

- صدقني إذا بتزبط هالقصة، إلك اللي ما أخذته من زمان، وكل ليلة كمان.

- ليش هو فلاح مخليني أقرب منك ولا أختلي فيكي.

- لسا بتذكر هذيك الليلة، وقميصك الأحمر بعده على بالي.

- طيب يا أسامة إسمع.....

- قبل ما أسمع، بدي دفعة عالحساب مشان نبلش شغل مع بعض.

- حالياً ما معي مصاري يا أسامة.

- ما بدي مصاري يا أم ملحم، بدي عربون واعتبريه قميصك الأحمر اللي زمان ما شفته عليكي.

- أسامة، إترك إيدي واسمعني مش وقته هالكلام....

متذكر عمر، الزلمة اللي فتح مصنع تبع ملابس وخياطة، ابن الحاجَة مريم اللي كانت ساكنة قريب من عين المي؟

- ما بعرفه، بس سمعت عنه إنه طلع حرامي، وسكروا مصنعه وبعدها راح على المدينة، أنا كنت صغير وقتها.

- هو بعينه، كان نائب بالبرلمان الدورة الماضية، ورح يرشح حاله مرة ثانية، ومن كم يوم رجع هون، زار قبر أمه وأبوه.

حالياً ساكن ببيت مُستأجر، بده يوزع فتافيت عالشعب، مثل ما فلاح بعطيك فتافيت!

- لشو بدك توصلي بالزبط؟

- عمر، بدك يا أسامة تصير خدامه، بدك تعبده عبادة، بدك تجيبه لعند رجلي هون، ووقتها إلك المصاري والعز!

وأنا بعرف كيف أخليه يعطيني شو ما بدي، منه ومن معارفه الكبار كمان.

- ليش مفكرة واحد مثل عمر رح يوثق فيه بسهولة؟ ورح ييجي معي لهون؟

أنا سمعت إنه بحب النسوان وياما سهران ببيوت دعارة، بس هالحكي بالمدينة مش هون.

البلد اللي ما بتعرفي حدا فيها، إعملي شو ما بدك فيها.

- مش شرط يا أسامة، هيني عايشة هون محل ما خلقِت، وبعمل شو ما بدي.

بعدين هاي القصة عليك إنت، وإنت اللي لازم تكسب ثقته، وخلال أسبوع بدك تجيبه.

إذا نجح في الانتخابات ما عاد نشوف وجهه!

- ماشي، رح أحاول.....

- ما بدي محاولات، بدي إياه تحت رجلي فاهم؟

- ماشي يا أم ملحم، اعتبريه صار تحت رجلك.

- الباب بيندق، روح اطلع من الباب الخلفي بسرعة.

- يعني ما في قميص أحمر اليوم؟

- روح هسا يا أسامة، وبس يصير اللي بدي إياه، إلك تشوف كل الألوان.

مش بس ألوان القمصان، ألوان الدلال والفلوس واللي بدك إياه.

- أهلين جارتنا، ويا هلا بجارنا، تفضلوا ادخلوا.

- لا معلش يا أم ملحم، إحنا بدنا منك طلب، وبنتمنى ما تفشلينا.

- تفضلوا إحكوا ولو، إحنا جيران.

- يا أم ملحم بدنا منك شوية فلوس ندبر حالنا فيهم لوقت ما جوزي ياخذ حق الأثاث اللي بشتغل فيه.

لو كان فلاح هنا، ورأى الموقف لفرح، فرصةٌ ممتازةٌ للإغواء بالمال وبدايةٌ لجرِّ زوجة النجار للرذيلة والفسق.

- ولا يهمك جارتنا، تكرم عينك وعين جوزك، فايته أجيبلكم الفلوس، كم بدك بالزبط؟

صحيح يا جار، كل ما أنام ع التخت بغرفة النوم بدعيلك، الكل بمدح بشغلك وبدعيلك!

- مين الكل جارتنا؟!

- ولادي ولادي.... قصدي لما يجو يزوروني، همه بناموا عندي كل فترة.

يا حسرتي مين بده ينام عندي غيرهم جارنا!!

يله يله، فايته أجيب الفلوس.

عمر، ذاك النائب البرلماني، ممثل الشعب والبلدَة، يعيش في قصرٍ فاخر، قصرٌ أهدته له الحكومة، ليغض النظر عن القرارات الوزارية في قبة البرلمان، والذي كان من المفروض وقوفه إلى جانب الشعب والبلدة، وها هو الآن، في منزلٍ مفروشٍ في البلدة يستعد لتوزيع المؤن على الشعب طمعاً في الأصوات والنجاح، والوصول من جديد.

دقَ أسامة باب منزل عمر، فخرج له رجلٌ ضخم، استدل أسامة من أكتافه العريضة أنه الحارس الشخصيّ للنائب عمر، طلب مقابلة عمر، فرفض الحارس ذلك بحجة أن سعادة النائب مشغول جداً...

- مين على الباب يا حارس؟

- شيخ بسأل عنك معاليك.

- طيب فوته لعندي، ليش مخليه يستنى عالباب؟

تفضل تفضل يا شيخ، تفضل، يا حارس إحكي للخادمة تعمل قهوة.

جلس النائب عمر وأسامة في غرفة الضيوف، تكلم معه أسامة عن أحوال البلد كفاتحةٍ للحديث، وجلس يذكره بنفسه، وأنه كان طفلاً عندما افتتح عمر مصنعه في البلدة منذ زمن، بل وأنه عمل لديه عندما أتم الثامنة عشر من عمره، وإنه يذكر كيف كان عمر يوزع على العمال الغداء بيده الطاهرة، ومع أنّ عمر ينظر لأسامة مستغرباً، فهو لم يوزّع شيئاً على العمال، وكان كلّ همه هو الربح، المال والسلطة كانا أسمى أهدافه، وكان التحرش بالعاملات ودعوتهن لمكتبه للتوبيخ بعد التقصير أسلوب حياةٍ وروتيناً

يومياً، وغالباً ما كانت القصة تبدأ بالتوبيخ وتنتهي على طاولة مكتبه، أو على السرير المخفي خلف غرفة المكتب.

- يا إبني والله ما تذكرتك، لكن على كل حال أهلاً وسهلاً فيك، العتب عالعمر والصحة، ما تواخذني يا إبني.

- ولا يهمك معاليك، بس أنا إلي عندك طلب، وبتمنى ما ترفضه.

- تفضل يا إبني، طلباتك أوامر، لكن من الآن إذا شغلة كبيرة، بدك تستنى حتى أكسب المقعد النيابي إن شاء الله.

- مولانا أنا بدي بس تشرفنا تتغدى عنا بكرة....

- والله يا إبني المشاغل كثير وال....

- بترجاك معاليك ما ترفض، إنت ابن البلد ولازم نقوم بواجبك.

- خلص إن شاء الله، تكرم عينك وعيون أهل البلد.

- رح أستناك معاليك، ورح أذبحلك خروفين مشان عيونك.

- لشو خروفين يا إبني؟ صحن زيت من زيتونات البلد بكفيني!

هل يريد أن يتذوق فقط زيت البلدة، أم يريد تذوق تعب وعرق أبنائها، أم أنه يريد الظهور بمظهر الموفر الحامي، الذي لا تهمه الولائم والموائد، كل همه هو البلدة والتطوير وبناء المدارس، وبناء ميتَمٍ خاصٍ بالبلدة، استغل أسامة فرصة وجود فلاح في البلدة المجاورة، كان ذاهباً لتفقد كرم الزيتون خاصته، ولو كان هنا، لما استطاع أسامة دعوة النائب والاتفاق مع أم ملحم، فهو وجه البلد ولا أحد يدعو أحداً دون وجوده على رأس المائدة.

آخٍ يا عمر، بل وألف آخٍ يا عمر، كيف لا أتذكر عمر، مهلاً، ألا تتذكرني؟ أم أن الأحداث ضيعتك؟ إنني سارق البيض من قُنِ الجيران، وأنا من أروي لك كل الأحداث الفاجرة، إنني من بعت طناجر بيتنا للزنى بامرأة اُكتشِفَ أمرها، إنني من نفثت السجائر التي كانت ثمناً لمشايةٍ جديدةٍ لأمي، بإمكانك تذكرني، فأنا الرجل الأربعيني الأشعث الأغبر، على عامود المسجد متكئاً، أرتدي ثياباً من "البالة" سهلٌ تمييزها على وجهٍ ملولٍ متجهم.

كيف لا أذكر معالي وسمو عمر، وقد افتتح وقتها مصنعاً للقفازات والمعاطف الشتوية، وحرم والدتي التي قمت بإيقاعها على الأرض في آخر لقاء لي معها وهي على قيد الحياة ولنرجع بالزمن.....

خرجت من البيت بعد دفعي لوالدتي أمام إخوتي الصغار، خرجت مسرعاً راكضاً إلى ذات الأحراش البعيدة، والتي تبولت على نفسي فيها ذات مرة، بعد ليلةٍ مليئةٍ بالمسكرات والحشيش، أفكر في حياةٍ غير هذة الحياة، مشيت للأقران وطلبت منهم المال، وإلى المدينة، في أول باصٍ وكنت عابساً متجهم الوجه، وها أنت تراني في الليلة التالية جالساً أمام ملهىً ليلي، أراقب الراقصات والمترفين، كنت سأدخل ومنعني الحرَس، فكيف للقروِي الفقير أن يدخل جنَتهم وليس في جيبه الكثير.

نمت في الشارع لأيام، تسولت " الساندويش" وبقايا الطعام من المطاعم الكبيرة، والتي غالباً ما طُردت من أمامها، ليالٍ كانت تفصلني عن تقبيل حذاء صاحب الملهى وترَجيه ليعطيني أي عملٍ في ذلك المكان المليء بالمجون.

يومي الأول في العمل، قصصت أظافري ووقفت أمام المرآة، كنت بلحيةٍ خفيفةٍ جداً وقتها، جعلني صاحب الملهى أحلقها لأحصل

على استلطاف الراقصات كي لا أُطرد سريعاً، ما تريده الراقصة كان يحصل ولا تستغرب، فبعض الراقصات يتحكمن بمصير شعوبٍ وقبائل لمجرد أنها حازت محبة واستلطاف مسؤولٍ مهم.

في هذه الأثناء كانت أمي حزينة، وقد فقدت بكرها للأبد، السواد يحاصر عينيها، وتبكي طول الليل والنهار، تهَوّن عليها الجارات اختفائي ومنهن من كانت فرحةً بتعاستها، ولا شك بأنك استنتجت بأنها جارتنا أم محمود والتي كانت تضحك خلف منشر غسيلها عند سرقَتي لبيض الجيران وقيام صاحب البيض بتكبيلي أمام والدتي.

- مش عارفة الولد وين راح، بدي بس أتطمن عليه، ما بدي أكثر من هيك.

- وكِلي الموضوع لربنا وان شاء الله يرجعلك بالسلامة.

- المشكلة بعده ولد، وما بعرف يدبر حاله، وما معه مصاري يشتري أكل.

كان كل همة يدَخن ويشتري سجاير.

تبكي أمي بكاءً مريراً، وبعد أن تدخلت جارةٌ أخرى، نهرتها أمي بشدة، طردتها خارج الدار وهي تبكي بحرقة.....

- دخلك على أيش زعلانة عليه، مهو قبل ما يروح ضربك!

- إبني بضَل، إبني، عارفة شو يعني إبني.

خلفته وتعبت عليه وحملت فيه تسع أشهر، رضعته من صدري.

كيف بدك ما أحزن، تحكيش معي والله معك، إطلعي من هون بلاش أزعلك أكثر!

تزامن ذلك مع كميةٍ كبيرةٍ من الانبساط عندما تذوقت "الويسكي" لأول مرةٍ في حياتي، من كأسٍ تركها زبونٌ على الطاولة، شربتها بعد اختلائي بنفسي في مطبخ الملهى، ألم العملات تحت أرجل الراقصات، أنظر من الأرض والراقصة قريبة، أريد أن أرى ما تخفيه بدلة الرقص تلك، ولا بدَ لها من إخفاء كل عظيم، فلو لم

يكن عظيماً، لما تهافت الذوات يدفعون كل هذا المال للرؤية فقط أو...

- مشان الله تشتري مني يا إبني، مشان الله تعال.

قرب شوف هاللفحات والكفوف ما أحلاهم.

وأثناء محاولة البيع لذلك الزبون، اقترب منها ضابط شرطة...

- شو بتعملي هون يا حجة، ليش بتبيعي هالشغلات هون، ما بتعرفي إنه ممنوع؟

في مصنع فتح جديد بالبلد هون، وبعمل أحسن من هالشغل، وغير هيك معه ترخيص من البلدية.

معك ترخيص إنتي لتبيعي هون؟

- لا والله يا إبني ما معي، أنا مسكينة وعلى باب الله، بدي أعيش الأيتام الي عندي.

- يا عسكر، صادروا كل البضاعة، وحطولي هالحرمة بالبوكس.

- مشان الله يا سيدي، ما توخذ البضاعة، والله عندي أيتام بدهم أكل وشرب!

- خذوها عالبوكس بسرعة.

وها هي أمي تنزل عند حذاء الشرطي، تحاول تقبيل حذائه ولا مفرَ من البوكس، تبكي داخله ولا مهوَن عليها إلا الله، وليلة أطول من كلِّ لياليها، باردةٌ جداً، وفي نظارة قسم الشرطة، تم إخلاء سبيلها في الصباح، بعدَ ليلةٍ من الجلوس في الزاوية والبكاء، والدعاء لي بالرجوع لحضنها، ويعلم الله أن يديها كانت ترتجف، تتساقط دموعها حتى صنعت بركةً من الدموع تحتها ولو كان زمن المعجزات ما زال قائماً، لناداها من تحتها ألا تحزني، ولكنها في زمن انتهاء المعجزات، فإن لم ينتقم لها القدَر في حياتها، سينتقم لها الله في الآخرة وخصوصاً مني أنا، وسنرى!

تقف سماح، ترتب نفسها لورديتها التالية، بإمكانك رؤية بذلة الرقص الشرقِي، تبدي الكثير وتخفي القليل، تُبدي ما حضر الذوات لأجله، كنت أنظر إليها من الباب بشغف، فنادراً ما أرى مثل قطع الجبن هذة ولن أرى مثلها ما حييت....

- فوت... ليش خجلان، وين رايح فوت، شايفتك بالمراية على فكرة!

- أنا مش خجلان، أنا بس...

- مش خجلان! خدود مين الي لونهم أحمر لكان؟

تعال قرب شوي، تعال أمسحلك جبينك، كله عرَق.

- أنا بس بدي أحكيلك إنه.....

- إحكي إحكي...دخيل الخجلان بس!

كانت تضحك ضحكاتٍ صاخبةً صارخة، تملؤني بالنشاط والقليل من الخجل، لا أعلم لماذا أخجل منها، فقبلَ زمن ليس ببعيد، كنت أضاجع زوجة البقال قبلَ أن يتم الإمساك بها بأسبوع،

ولكنَ فخامة الكيان الجميل الواقف أمامي جعلني كالأبله، ودفعني بقوةٍ لخجلٍ غير معتادٍ عليه.

- صاحب الملهى بحكيلك إنه ما في إلك وردية ثانية اليوم، تأجلت ورديتك لبكرة.

بحكيلك روحي ارتاحي مشان بكرة فيه ضغط شغل....

- طيب تمام.... شو رأيك توصلني عالبيت؟

بيتي مش بعيد، مشي ربع ساعة بس، حابة أتمشى ما بدي آخذ تكسي.

- بس صاحب المحل ما رح يقبل أترك شغلي وأوصلك!

- صاحب المحل قلتلي؟ تعال تعال.

إذا بحكي معك أو بزعلك، بس احكيلي.....

ألم أخبرك سابقاً بأنّ الراقصات يتحكمن بكل شيء؟ في زمنٍ قلَ فيه الرجال وليس فيه سوى أطفالٍ شرهين، إنّ هزةً واحدةً من خصرها، كفيلةٌ بإلغاء قرارات وتوطين قراراتٍ أخرى، سجن فلان

وتعذيب فلان، رفع فلان وإذلال فلان، قلب حياة أشخاصٍ لجعلهم تحت الأرض، أو رفعهم ليصلوا عنان السماء!

سِرت معها لمنزلها، ربع ساعةٍ كانت كفيلةً للوقوع في حُبها، ولا تنسَ بأنني كنت مراهقاً ساذجاً، أعشق الاهتمام النسائي، ما هذه بشفاه، توتٌ أحمرٌ يتكلم، ولك أن تتخيل جمال التوت الأحمر عندما يتكلم، أسرح في مخيلتي، لماذا تعمل فتاةٌ بهذا الجمال كراقصةٍ تهز خصرها أمام الرجال، لو كانت زوجتي لوضعتها خلف ألف بابٍ ومفتاح، بل وأضعها في الأدراج!

تفكيرٌ عديم الأفق، فمن لم يكن لديه الشرف صعبٌ عليه التبرع فيه، ففاقد الشيء من المستحيل أن يعطيه، ومن لديها الشرف لن يمسَها مكروه، لو وضعت بين طوابير من الرجال والسلطة، وإنّ الخائنة سوف تخون، ولو وضعتها في زنزانة، ومستعدةٌ للزنى بنفسها وتحت لحافها....

بدأت بالكلام ونسيت الخجل، أخبرتها بأنني حقيرٌ مريد، دفع أمه من غير قصد، أخبرتها بأنني بعتُ طناجرنا للزنى بامرأةٍ متزوجة.

- بغض النظر عن الزنى وبيع الطناجر، إنت حقير على فكرة!

- ليش عصبتي؟

- روح اشرب عرَق، روح نام مع مين ما بدك، بس أمك؟ ضربت أمك؟

- ما كان قصدي يا سماح، والله بدون قصد.

- إنت عارف أنا كيف بلشت أشتغل رقاصة؟

أنا أبوي مات وأنا طفلة، أمي ربتني ودخلت الجامعة، زي أي بنت جامعية كنت أدرس ونفسي ألبس ثوب التخرج، وأنا في سنتي الثالثة، أمي صار معها سرطان، دورت على شغل وكل واحد كنت بشتغل عنده كان بده ينام معي، بالآخر اشتغلت عند صاحب محل ثياب نسواني، وعرفني على صاحب الملهى وكنت محتاجة مصاري، وهيني بشتغل رقاصة، كنت طفلة بجسم صبيه، ولما شفت جمال

الفلوس، بطلت تفرق معي، وصرت أبيع جسمي وكرامتي وشرف أبوي المتوفى، كنت أشتريلها دوا والثمن كان هزات كثيرة من خصري و....

ليس ذاك بمبررٍ لتعمل تلك الفاتنة كراقصة، وليس بمبررٍ لتبيع جسدها لسفلة القوم، ومع أنها تعتبر نفسها بالية الأخلاق، إلا أنها احتقرتني لضربي لأمي، ربما لأن ليس لديها أم، ففاقد الشيء يحن له دوماً، ولكنها فرحت عندما أخبرتها بأنني سأجمع المال وأعود لأمي المسكينة وإخوتي اليتامى، قالت لي بأنها ستؤمن عملاً جديداً إن عدتُ وأحضرت أمي وإخوتي للمدينة، انتهى الحوار حالما وصلنا لباب شقَتها، أمسكت كلتا يديّ بلهفة....

- معلش أطلب منك طلب يا سماح؟

- أطلب!

- معلش تبوسيلي راس أمك المريضة، وتقبلي مني هالفلوس مشان الدوا تبعها!

اغرورقت عيناها بالدموع، وبدأ الانزعاج يظهر عليها...

- أمي توفت من ست أشهر، بعد آخر عملية لاستئصال الورم.

ماتت وهي تحكيلي أنتبه على حالي، وشوفة عينك، هيني كملت مشوار الرقص!! خذ فلوسك، أنا معي فلوس، جمعهم مشان ترجع لأمك.

إرجع عالمحل، تأخرت لأنه، وإذا الوسخ حكى معك احكيلي.

- حاضر، رح أحكيلك.

متناقضاً متأرجحاً بين جمالها وقصة أمها، أستغرب من نفسي، كنت سأعطيها كل ما أملك لوالدتها الميتة أصلاً، بينما أنا نفسي من بعت طناجرنا ودفعت أمي فوقعت على الأرض بدون إحساسٍ أو شعور، فعلاً إنني سافلٌ وضيع، بدأت بالإحساس بأمهات

الغرباء لمجرد أنني أُعجبت براقصةٍ شرقية، عدت للملهى وقد وبخني صاحبه بشدة، فقد تأخرت في رجوعي، سارحاً، كنت أفكر في طريق العودة ويا لعار ما كنت أفكر فيه!

رجعت أمي لدارها خاوية اليدين، فبضاعتها تمت مصادرتها، وانظر لرجال الشرطة في المساء يهدون زوجاتهم ما تمت مصادرته.

ليلةٌ نامت في مركز الشرطة وإخوتي يتجرعون دموعهم على بلاط المنزل، مرضت أمي بعد تلك الليلة لأسبوع، طريحة الفراش لا أدري هل مرضت بسبب تلك الليلة الباردة، أم أن مصادرة بضاعتها وقهرها كان السبب، وقد كان غيابي يصبُ على كل ذلك الوقود سريع الاشتعال.

وها هي صحون الخيرين تغزو بيتنا الذي لم أكن موجوداً فيه، كانت أمي حزينةً لذلك، ولكنها بددت الحزن لتُطعم الأفواه

الجائعة طوال عمرها لم تستلف مالاً ولا طعاماً من الجيران، ولكنها الآن جثةٌ حيةٌ لا تقوى على شيء.

استفاقت من مرضها بعد أسبوعٍ مرَ كالسّم على نفسها وجسدها المتعب، بدأت تفكر، كيف ستطعم أفواه اليتامى؟ ما كان منها إلا إن خرجَت تدُق أبواب المنازل، تسألهم إن كانوا يطلبون خادمةً للمسح والشطف والتعزيل، طردَت عن بعض الأبواب، ورحبت بها بعض النساء ممن يضَعن طلاء الأظافر، ويخفنَ على أظافرهنَّ أكثر من الخوف على أرواحهنَّ، كان سكان البلدة ميسوري الحال قليلين، بإمكانك عدُهم على الأصابع، فكان ما تجنيه قليل، يكفي بالكاد لإطعام أيتامها، شكَرت الله فقد كان إطعامهم كل همها وسبب حزنها.

أحست بأن أبواب الخير فتحت لها، عندما أخبرتها صاحبة أحد المنازل بأنها ستعطيها أجرةً جيدة، إن زارتها كل يومٍ ونظفت المنزل فرحت بشدة، وبدأت بجلب أغراض المنزل كاملةً من جديد،

وبدأ إخوتي يطلبون ما لذَّ وطاب لهم، فهم جائعون منذ زمن، ينظرون لما بين أيدي الأطفال في الحارة بشقاءٍ وحسرةٍ وكسرة خاطر.

أحياناً ما كانت تحتاجها صاحبة المنزل صباحاً، وأحياناً تطلب منها المجيء عصراً فتتأخر لبعد العِشاء، يفتقدها إخوتي لساعات، ولكن قلوبهم تفرَح عندما يرَونها، ويزداد فرحهم عندما تحضِر طعاماً زائداً لذيذاً من صاحبة المنزل كصدقَة.

تَوصيلةٌ واثنتان، وتوالت التوصيلات لبيت الراقصة سماح، حتى دخلت منزلها ذات مرة، وشربنا سوياً وضحكنا كثيراً، وهمَمْتُ بالخروج وأنا أترنح، فأمسكت بيدي وجَرتني جراً أثناء ضحكاتي المجنونة لغرفة نومها، وقد حصل ما حصل...

ترقص سماح مبهرةً الجميع، مرَ أسبوعٌ على نومي في فراشها لأول مرة، أسبوعٌ كاملٌ من الليالي المِلاح في سريرها وبعدَ ورديتها، مرَ شهرٌ من الدلع والغزَل، وأثناء رقصها أمام كبار الشخصيات وأثناء اقترابها من أحدهم لتزيدَ الإغراء، استفرغت في حضنه وعلى بنطاله، ضجَ وصرخ وطلب صاحب الملهى ووبخه، والذي اعتذر منه وأخذه لغرفة تبديل ملابس الراقصات وغسل بنطاله بنفسه، فهو زبون صاحب جاهٍ وعزّ، وصارف للدولارات في الملهى.

- تعبانة مش قادرة، بدي أروح عالبيت حاسة بدوخة.

- طيب فوتي ارتاحي هون شوي، وارجعي كملي ورديتك!

- بقلك مش قادرة، إنت ما بتحس!

- طيب روحي عالبيت، وبكرة بتيجي مرتاحة، بكرة بدك تشتغلي ورديتين بدل اليوم.

- وحياتك ما رح أشتغل إلا وردية وحدة، وإذا مش عاجبك رح أروح على ملهى ثاني أشتغل فيه.

- خلص خلص، ليش القمر بعصب بسرعة؟

وردية وحدة يا ستي، ووردية اليوم محسوبة إلك كمان.

إنت، روح وصل سماح على بيتها.

- حاض يا باشا... رح أوصلها وأرجع بسرعة.

- تعال وين رايح، خذ الفلوس هاي واطلب تكسي، ولا بدك سماح تروح مشي!

ركبنا التكسي لبيت سماح، وفروٌ غالي الثمن يحيط بكتفيها، وجزءٌ من كتفها ظاهر، ينظر سائق التكسي في المرآة متفحصاً سماح، حتى نظرت في مرآته وجعلته يشاهد الوجه الغاضب، كانت

واضعةً رأسها على كتفي، غافيةً تشعر بالأمان بجوار مَن كان عديم الشفقة بوالدته!

- يله بدك شيء يا سماح؟ بدي ألحق أرجع عالمحل.

- أنا خايفة، خايفة أكون...

- تكوني شو يا سماح؟

- أنا شكلي حامل، وبكرة رح أروح أفحص.

- حامل!! من مين؟

- منك يا غبي، منك!

- وإذا طلعتي حامل شو رح نعمل؟

- ما بعرف، ماا بعرف.

- سماح، أنا كيف بدي أعرف إنه...

- تعرف شو؟ اااه، كيف تعرف إنه الولد منك ولا لأ؟ إنت عارف من لما عرفتك ما حدا دخل فراشي غيرك. روح، إنت قذر ورح تضلك قذر يا....

أغلقت الباب وأنا مُتسمرٌ مكاني، مصدوم إلى ما وصلت إليه، ضرَبت أمي وبدأت بالسفالة والفجور وها أنا قد نمت في فراش الراقصة التي أجمع المال تحت قدَميها في الملهى، وها أنا سأصبح أباً لطفلٍ "ابن حرام" إن ولد، لن يكون له ذنب في كونه ابن زنى....

نمت في الملهى أفكر، ودعوت الله بأن لا تكون حاملاً، هاتفت صاحب الملهى وأخبرته بأنها تريد إجازةً لأسبوع، هرولت مسرعاً لمنزلها وأخذت ورداً أحمر، قطفته من حديقة جيرانهم، طرقت الباب ففتحت ولما رأتني أرادت إغلاق الباب، دفعته بيدي فدخلت، ولما رأتني مصراً على الدخول استسلمت، وقفت أمامي وأخبرتني بأنها حامل....

حضنتها وقبَلت جبينها بحبٍ وحنان، أجلستها على الأريكة وصنعت لها فنجان شايٍ ساخنٍ، وحالما بدأت بالشرب أخبرتها بأنني آسف، وأن ما في بطنها يعود لي...

- أنا ما نمت مع غيرك، والله من لما عرفتك ما عملتها!

- أنا آسف يا سماح، سامحيني أبوس أيدك....

- عادي ما وقفت القصة عليك، إنسى.

- سماح بدي أطلب منك طلب، وبتمنى توافقي عليه.

- شو بدك كمان؟ بدك أسامحك؟ اعتبرني مسامحتك.

أنا بعرف أدبر حالي بهالمصيبة وما رح أنزل الي ببطني.

- سماح...تتزوجيني؟

- شوو!

- مثل ما بحكيلك، تتزوجيني؟

- إنت نمت بفراشي لإني رقاصة، مش لإنك بتحبني!

لإنك حبيت جسمي بس، إنت رجل ما بعيبك شيء!

لكن أنا الرقاصة، أنا اللي كل أهل البناية بقرفوا مني.

أنا اللي أطفال الحي كلهم بنادوني سماح الرقاصة.

دخلك ليش بدك تتزوجني، وعلشان شو؟

- عشان أنا بحبك يا سماح، وعلشان ابننا!

تضحَك سماح ضحكاتٍ ساخرةً حزينة، إلى أن قمت وضممتها وأحست بحناني، بعد القليل من محاولات الإبعاد.....

- عنجد بدك تتزوجني؟

- آه حبيبتي، بدي أتزوجك، اشربي الشاي قبل ما يبرد.

ساعتان فقط كانت تنزف، وبعد أن أسعفتها جارتها لأقرب مستشفى، أسقطت جنينها، لن أُخبيء عليك أكثر، مررت بطبيبٍ يعمل بصيدليةٍ قبل زيارتي لسماح، له خبرةٌ في عمليات الإجهاض لكل فتاةٍ تحبل دون زواج، ولن أنقذ العديد من الفتيات من سكاكين إخوتهن، اشتريت منه ذاك الدواء الذي خلطت منه بضع قطراتٍ مع الشاي مقدماً إياه لسماح، مع الكثير من الحبّ وعرضٍ ماكرٍ للزواج.

لا بدَ لك وأنت تفكر ضاحكاً باسماً بأنني أخيراً كنت قد بدأت أتحمل نتيجة أخطائي، وبدأت أصلح من نفسي، وربما كنت سأتزوج سماح وأجعلها تترك العمل في الحرام وأعود معها إلى

حضن أمي، ولكن نيَتي كانت غير ذلك، زرتها مجدداً في المستشفى الحكومي ويا للصراصير تملأ الأروقة، كانت سماح نائمةً على سريرها الحزين، بعدَ عمليةٍ متعبةٍ قاموا فيها لاستئصال الرحِم، فقد كان النزيف قوياً يصعب السيطرة عليه مع مضاعفاتٍ كانت تودي بحياتها البائسة وصدقني لو ماتت لكانت ارتاحت من الظلم الذي تجرعته طيلة حياتها، حزنت قليلاً فخطتي تعدَت المطلوب، فبدلاً من فقدان الجنين فقط، فقدت تلك الشابَة رحمها وحياتها....

فاقت سماح بعد أربع ساعاتٍ كانت لا تشعر فيها بشيء، فقد كان الأطباء يضعون في وريدها أقوى أنواع المخدر، وبعد أن فاقت بالكامل أخبرها طبيبٌ مستجدٌ بأنها فقدت رحمها، يا لبلاهته، فقد أخبرها دون تمهيد، صرخت ومزقَت ثيابها وركضت عاريةً في المستشفى إلى أن سيطرت عليها الممرضات وأرجعنها لسريرها، أيامٌ كانت تفصلها عن زيارة أول طبيبٍ نفسي، وشهران حتى

كانت من سكان المصحة العقلية، تلعب مع "دبدوبٍ" قديم تعتقد بأنه ابنها، وتناديه باسمي طيلة الوقت....

كانت سماح ضحيَتي الثانية، فلا تنسَ أمي، فمن كانت أمه أول ضحايه بإمكانه ملء الأرض بالجثث والضحايا، لم تكن أموري كلها خيراً، فبعدَ أن فقدَت سماح رحمها وبدأت تفقد عقلها اجتمع عليّ أربعة رجالٍ أشداءَ عريضي المناكب والصدور، بعثهم إلي صاحب الملهى القديم وأنا عائد من عملي في ملهى آخر، فقد امتنع العديد من الزبائن من الحضور للملهى بعد ترك سماح للعمل قطعياً.

تهشم وجهي وكُسر أنفي، كُسرت رجلاي وطُعنت في خاصرتي، بل وتمَ إلقائي في حاوية نفايات، وكانت الساعة تدق الخامسة صباحاً.

جاء عمال النظافة نشيطي الملامح في الصباح الباكر، وكانوا نشيطين ظاهرياً لتجنب التوبيخ، بدؤوا بإفراغ الحاويات إلى أن بدأ أحدهم بالصراخ...

- معلم، يا معلم... تعال شوف في شب بنزف وشكله ميت جوا الزبالة!

كم أحبك يا عامل النظافة، ليس لأنك تنظف مدينتنا وتُزيل روائحها، بل لأنك أنقذت حياتي، تمَ بعد ذلك إسعافي للمستشفى، كنت أقرب للموت من الحياة، فقدت كليتي بسبب الطعنة، تشوه وجهي قليلاً وجُبرت رجليّ كاملتين، أنظر لسقف الغرفة أثناء تغوطي من خلال خرطوم بلاستيكي، أتذكر سماح وما فعلته بها، وإن ردَ دينِها لم يطل بل وتحقق أسرع مما توقعت، وما زالت هي في المصحة العقلية، تطلب من الممرضات "نونية"، لتعليم الدبدوب الذي يملك اسمي كيفية دخول الحمام، وضمته آخر ضمةٍ قبل أن تمسكه إحدى الممرضات وتشقه أمامها لنصفَين، بينما كانت سماح تبكي بحرقةٍ وتقول بأنه ابنها....

من عادة المجانين الصحوُ باكراً، يلعبون في حديقة المصحة العقلية، استغربت ممرضةٌ أن سماح ليست بينهن، ذهبت

لسريرها لتجدها غارقةً في الموت، تحضُن لفةً من المحارم أثناء غيابها في الموت متشنجة الحركة، والظاهر بأن لفة المحارم كانت ابنها الجديد بعد الدبدوب...

يا لوساختي ويا لسمي، فأنا أسمم أي شيء أمسه أو أتدخل فيه، وما زال سُمي يمس قلب أمي، وها هي تعمل بعد العشاء في منزلٍ كبير تمسح وتشطف وها هي قد انتهت وهمَت بالرحيل...

- إعملي حسابك كمان بكرة رح تتأخري لإنه عاملة حفلة بعد بكرة وبدي البيت يكون نظيف.

- حاضر يا ستي، أمرك....

انصرفت أمي لدارنا تعُد النقود في الشارع، تحسب في رأسها ألف حساب لما ستشتريه غداً من طعامٍ وأغراضٍ للمنزل، وكادت أن تدهسها سيارةٌ مسرعة، وبعدَ أن أطلق عليها السائق الشتائم....

- سامحني يا ابني... الله يوفقك، والله ما كنت منتبهة!

- روحي انقلعي، بدِك تبلينا فيكي يا ختيارة!

ابتعدت مسرعةً للرصيف، بينما كانت هناك عيونٌ تراقبها من بعيد، وفي اليوم التالي ذهبت واشترت أغراض المنزل، وعادت بها مع "الفروج" المحمّر، فرح الأيتام به وقد كانوا من أشهرٍ لم يتذوقوا طعمه....

- يمة تعالي تغدي معنا، زاكي الفروج تعالي!

- ما بدي يمة أنا أكلت بالسوق، بدي أروح ألحق الشغل... عندي تعزيل كثير اليوم.

- صوت معدتك يمة، إنتي ما تغديتي!

ذهبت جائعةً لمنزل الخدمة، توفر الفروجَ ليأكله إخوتي، وكانت طوال الطريق تفكر في قطعة الفروج التي سأتناولها لو كنت ما زلت في الدار مسحت وكنست وشطفت "التراس" وهمَت بعد العشاء بالرحيل، فنادتها صاحبة المنزل بصوتٍ جاد.....

- وين رايحة حبيبتي؟ لسا بدي تنظفيلي سقف المطبخ، لإنه كثير مغبر.

- يا بنتي والله ما بقدرله، أنا ست كبيرة ورجلي بوجعوني ويمكن أوقع عن السلم.

- والله يا خالتي أنا بعطيكي أجرتك كاملة، والمفروض تشتغلي الشغل كامل، أو رح أضطر أجيب وحدة ثانية!

- حاضر يا بنتي، أمري لله رح أشتغله.

وصعدَت سُلم القهر، نظَفت كل شبرٍ من سقف المطبخ، تهتز أرجلها تحتها ولا بدَ من أنها بداية هشاشة العظام، أنهت العمل ولبست عباءتها تتصبب عرقاً، أخذت أجرتها وخرجت....

- بكرة ما تيجي يا خالتي، عندي حفلة بالبيت، ابني تخرج من الروضة، تعالي بعد بكرة....

لقد تخرج ابنها من الروضة، وستقيم له الاحتفالات وكان لذلك وقعٌ شديدٌ على نفس أمي، خرجت من المنزل وكالعادة تعدُ النقود في الطريق حتى وصلت لطريقٍ غير مضاء، وما زالت عيونٌ

تترقبها من بعيد، وتعرف مواعيد خروجها وعودتها، بل وموعد عدِ النقود...

التفتت أمي للخلف، وكان فمها قد غُطيَ بيد رجلٍ ضخم، وكان مغطى الوجه بلا ملامح، ثوانٍ كانت تفصلها عن قطع عنقها، بحده نصل سكينه، بينما كان هو يركض مسرعاً مع نقودها، ولم تتمكن منها هشاشة العظام ولم تعش معها إلا القليل.

وها أنا الآن، أترنح في الملاهي الليلية، بينما تُقيم الحارة وكلُ البلدة عزاءً لأمي، إخوتي الصغار يبكون، وبدلاً من أن أكون معهم، أسرح وأمرح في أحضان الفاسقات وخائنات الأزواج، حتى القواصر لم يسلمنَ من فسوقي، تزورهم خالتي يومياً، تغسل ملابسهم وتطبخ لهم ما تأتي به من بيتها، تُنيمهم وتغلق عليهم الأبواب ثم تذهب لبيتها، ولم يُعجب ذلك زوجها، كان ساخطاً باستمرار، بحجة أنه يصرف ماله على بيتين وعلى من ليس من صُلبه، تلقَت خالتي أول صفعةٍ منه عندما طبخت لهم دجاجةً أحضرتها من قن زوجها والذي بدوره حلف عليها يميناً بالطلاق إن زارتهم أو أعطتهم أي شيء، أسبوعٌ من الحرمان والتسول في الطرقات كان كفيلاً بزيارة مدير دار الأيتام وأخذهم للدار للعناية والرعاية، وضبط الشوارع من متسولين جُدد.

لقد سمعت الكثير عن دور الأيتام، قصصٌ جميلة، وأخرى حزينة، بل ومنها ما يُدمي القلب ويقتلع مُقلة العين، فهذه فتاةٌ

نشأت في دارٍ للأيتام، وأصبحت كاتبةً روائية، بعد اهتمام الدار بها وبموهبتها، وذاك طفلٌ كبر في حصانة مديرة الدار بعد تنمر الأطفال الآخرين عليه، فكبر وتعلم بأن المظلوم لا بد له من أن يُنصف، وأن المجرم لا بد وأن يُعاقب، وأن الحقيقة لا بُدَ لها من الظهور، أكمل تعليمه وأصبح قاضياً مدافعاً عن الحقوق، من وجهة نظرٍ أخرى، فتلك فتاةٌ يتسلل لفراشها ليلاً ممرضٌ حقير، يتفحص جسها بكلتا يديه، تتصنع النوم خوفاً من الطرد خارج الدار، فعلاقة ذلك الممرض قويةٌ بمديرة الدار، ومن الصعب الإدعاء عليه، وذاك طفلٌ في دارٍ أخرى يتم التسول من المنظمات الإنسانية على اسمه، يؤكل حقه كله، ولا يحصل حتى على الفتات، وبإمكاننا رؤية ذلك من بنطاله الذي تخرج منه ركبته كاملة، وتلك مراهقةٌ يتيمة تخرج إحدى المسؤولات أمراضها النفسية عليها، وتقوم بضربها لأتفه الأسباب، في الحياة بعض الإحسان

وهناك أيضاً بعض اللؤم والحقارة، والكثير الكثير من اللؤم والحقارة المغطيان بالإحسان.

ولنعمق المسألة أكثر، وعلى نطاقٍ واسعٍ جداً، فإن الشرق الأوسط هو مرتع القنابل وتجريب أسلحة جيوش البلدان الضخمة، فلا تستغرب افتعال حربٍ في بلادنا فقط لتجريب قنابل ومسدساتٍ جديدة، وصدقني أن تلك الأسلحة دائماً ما تنجح، ويتم البرهنة على ذلك بعد عرض فيديو لقتل حارةٍ بأكملها ببضع قنابل فقط، فيديو تشاهده الشركة الصانعة للقنابل والجهة التي قامت بالتجريب، لتتم صفقةٌ بالملايين بل والمليارات، ويُغطى ذلك كله بأن تقوم نفس البلد التي تمت فيها صفقة الأسلحة بإنشاء منظماتٍ لحقوق الإنسان في شرقنا الأوسط، فيعاقبون أباً عاقب ابنه، ويضعون والداً في السجن لأنه لم يمسح مؤخرة طفله في الصغر، ولكنهم لا ينظرون لأفعالهم من تشريد الأطفال وقتل النساء واغتصابهن ومشاهدة الأطفال المقطعين إرباً تحت

العمارات المهدومة والتي تملأ شاشات التلفاز، فهل تظن أن هذا العالم طيب؟

فكر معي قليلاً، لماذا لا أفتعل حرباً إن كان لديَ كساد في إنتاج السلاح لشركةٍ كلفتني المليارات؟ معنى أن أفتعل حرباً هو أن أبيع الأسلحة للأطراف المتحاربة، بل وأنتهز الفرصة للسيطرة على الشعوب الضعيفة بطبيعة الحال بعد الحروب، فقد كسبت نفاذ بضائعي والسلطة، ولم تنتَهِ مكاسبي يا هذا، فإن جرحى الحرب ومرضاهم، ومن تنفسوا هواء الجيَف والفيروسات سيحتاجون للدواء والمسكنات وحتى الضمادات وذلك كله من مصانعي، فمرابح شركات الأدوية بالملايين، بل وحتى قفازات الأطباء وأدواتهم الجراحية من مصانعي، من الشفرات الجراحية وحتى الروبوتات التي تُجري العمليات الجراحية لوحدها دون وجود طبيب.

مهلاً، إنك تستمتع باكتشاف بعض التصرفات الحقيرة العالمية، فلتنتظر حتى تسمع بأنّ بعض الأمراضِ دواؤها موجودٌ ومجربٌ وفعَالٌ، ولكنّ الناس يموتون بتلك الأمراض بالآلاف كل عام.

لماذا أقوم بإخراج المصل والدواء لمريض ينازع، طالما بإمكاني جعل الدواء محفوظاً خلف سبع أبوابٍ مقفلةٍ بالحديد والفولاذ وبعض الكودات السريَة، لماذا سأكشف الدواء الذي سيشفي المريض بعد أول جرعةٍ فقط، بينما بإمكاني بيعُه المسكات لتخيف الآلام فقط حتى يموت، عشر سنين من عذابه ومسكناتي، كافيةً لجعليَ المليونير الثري، وجعله الجثة الهامدة والتي كان من الممكن علاجها قبل زمن.

هكذا يسير العالم إن كنت لا تعلم، وفي ناموسهم ليس بالإحسان تؤكل الكتف، بل بالدمار والخراب وقتل الأطفال وتشريدَ المسنين، والسيطرة على الدول ووضع الديون عليها بالمساعدات المالية، وتقديم الدعم العسكريٍ من أسلحةٍ وطائراتٍ منتهية الصلاحية،

وحتى إشعارٍ آخر يكون سداد الدَين، بالإضافة لعقود صيانة الأسلحة من الدولة المانحة للمساعدات العسكرية، ولتعلم أن ثمن أقل برغيٍ يستخدم للصيانة أكثر من مئتي دولار مسجلةً كديون، يتم السيطرة على أرضنا من خلالها وبالقليل من الطائرات المتقاعدة والكثير من البراغي.

دُقَّ باب غرفتهما الزوجية بعدَ الفرح، وأثناء إخبار عبادة لسناء كم هي جميلة بالأبيض، كان الطارق والدته ومعها خالته، تحملان عشاء الزوجية الفاخر، فإن لم يرفه الإنسان عن نفسه ليلة زوجة، فمتى؟

وضع صينية الطعام على الطاولة وبدأ بمساعدة سناء على فكِ أزرار فستانها من الخلف، مع تذكره لمشكلته وتراقص يدَيه عندما أخذ يفكر في رجولته، فك دبابيس شعرها الطويل الكثيف، جعلته يدير لها ظهره أثناء تبديل ملابسها متظاهرةً بالخجل ولإشعاره بالدلع والشهوة، جعلها أيضاً تلف ظهرها له ولا تدري ما السبب، وأنا وأنت متأكدان بأنه لا يتظاهر بالخجل، بل هو خَجلٌ فعلاً.

تناولا أجزاء اللحم والكباب، أطعمته كثيراً من اللحم بيدها، ليكون قوياً في فراشها حدَ التحطيم، ولكن رأسه أصبح ثقيلاً كالجبل، وامتلأ "كرشه" بالكثير الكثير.

- عبادة مالك؟ بسم الله عليك، بتغفى بليلة عرسنا يا عبادة؟!

- حبيبتي حاسس حالي نعسان شوي!

- قوم... قووم، شو نعسان؟ خذ إشرب مي صحصح يا عبادة.

وهجمت عليه كلبؤةٍ حائرة، في موسم تزاوج الأسود، بدون أي ردِ فعلٍ في البداية، حتى بدأت ردات فعلٍ لن تتوقعها، لقد بدأ عبادة بالهرب والركض حول السرير، وهي تصرخ وتنادي عليه مستغربةً لما يحصل، دائماً ما تعشق الأنثى أن تكون محلَ إعجاب زوجها ورغبته، وإن لم تُعر الأنثى اهتماماً ضجّت عليك وصخبت وليكن الله في عونك....

بضع ثوانٍ وكانت ممسكةً به، بدأت بخلع ملابسه عنه أثناء رفضه وإبعاد يدها عنه، وبعدَ أن أصرت أكثر، صفعها على وجهها بقوةٍ وصاح:

- سناء من الآخر أنا ما بقدر.

- شو يعني ما بتقدر؟!

- أنا هيك من وأنا صغير، مش قادر أقرب منك، نفسيتي تعبانة وماا بقدر.

- يا سافل يا حقير، ضحكت علي؟

ليش ما حكيتلي من أول إنك مش زلمة وإنك مثلي مثلك؟

- يا سناء مش بأيدي كان، والله غصب عني.

صدمَة عمرها، وعلى سرير الزوجية صُدمت، ويا لقوة صدمتها، نصف ساعةٍ من التصفن في حيطان وسقف الغرفة، تشجعت وأخبرت عبادة بضرورة التجريب والمحاولة، بعد أن أخبرها بأنه لا يعاني من أي مرضٍ عضوي، نصف ساعةٍ فساعة، ضجرٌ وملٌ من جهتها وخِزيٌ وعارٌ من جهته، مرَت ساعةٌ ونصف وكانت تملأ المنزل بل وكل الحارة صياحاً، حتى جائت خالتها وأمها، ووقف الجيران يستمعون ويعلمون بمشكلة عبادة واحداً تلو الآخر، وسطَ ضحكاتٍ وتلامزٍ من مارقي الطريق...

- مجوزيني واحد مش زلمة، مش زلمة؟ أنا كيف بدي أخلف ولاد يمة؟ كيف يا خالتي؟

جوزتوني بنت مثلي مثلها، بستحي إذا بدَل أواعيه قدامي!

ونظرَت لعبادة، واضعاً رأسه في الأرض، يبكي وتبكي والدته بحرقة، والدته التي فشلت نظريتها في التجريب بسناء، وبعدَ أن رفع رأسه ونظر باتجاه سناء.....

- إنت طالق يا سناء... طالق، طالق!

ومن شدَة قهرها ضحكت بشدَةٍ أمام عبادة الذي كان يبكي....

- ليش إنت زلمة حتى تقدَر تطلقني؟ الظاهر أنا أرجل منك وكان لازم العصمة بإيدي..

أكملت سناء ضحكها بينما كان عبادة راكضاً عبر أروقة الحارة، هارباً من زفافه المشؤوم المنتهي بفضيحة، تركض والدته خلفه حتى وقعت في حفرةٍ سطحيةٍ من الوحل والماء، رفعت يدها

باتجاهه ونادته كثيراً بينما كان مُبتعداً لا ينظر خلفه، وكان أطفال الحارة يرمونه بالقاذورات والطماطم العفنَة.

ثلاثة أيامٍ من النوم في الأزقة وتحت الأشجار، وفي ليلة اليوم الثالث مرَ به كلبٌ مسعور، مكشراً عن أنيابه كان، فقال له عبادة في مشهدٍ ساخرٍ بأن يأتي ويأكله، ليرتاح من همِه وحزنه، أغلق الكلب فمه الكبير ببطءٍ مخفياً تلك الأنياب، وأنزل كتفيه لموضعهما الطبيعي وأدار ظهره لعبادة وذهب!

- وين رايحة يا سناء؟ وانتي يا أم سناء، وين رايحين؟

- أنا آسفة يا خالتي، أنا ما رح أقدر أعيش عندكم أكثر.

- وابني اللي حطمتيه؟ ابني اللي نشرتي غسيله بكل الحارة؟

أسبوع غايب عن البيت وكل يوم بدور عليه، حتى الشرطة مش ملاقيينه!

- إبنك مكسور ومتحطم من أول يا خالتي، وما تنسي إنه أنا تعرضت للخداع!

- إحكي كلمة مع بنتك يا أم سناء، بعدين وين رح تروحوا؟ ما إنتو بعتوا بيتكم!

- معلش يا أم عبادة، رح أشتري بيت صغير بالمصاري اللي بقيوا معي.

وأثناء خروجهما من الباب:

- الله لا يسامحك يا سناء.....

ضحكت سناء باستخفافٍ شديد، وبكَت أم عبادة أكثر، وكان عبادة في تلك الليلة، يتسكع في بلدته بعدَ أملٍ قلَّ في العثور عليه، ووجدته سيدةٌ ممشوقة القوام، تتصيدُ الزبائن من الرجال الشرهين، بحالٍ مزريةٍ وجدته، متسخ الثياب ورائحته نتنة، وبعيونٍ وحاجبين أعجباها كما أعجبا سناء سألته عن حاله وظلَّ ساكتاً، فأخذته بعدَ عناءٍ لمنزلها، نظَفت ثيابه وغسلتها ونشرتها لتجف، وأعطته ثياباً ما زالت تحتفظ بها لزوجها المتوفى، وكانت صغيرةً بعض الشيء، فأعطته من ملابس الإمام فلاح والتي

يتركها لدى أم ملحم احتياطاً، لبس وأعدَت له الطعام فأكل وشبع، وبعد أن كسرت عينه بالطعام، أخبرته بأنها أحبت عينيه، فاختصر عليها الطريق وأخبرها بمشكلته، وسبب فراره من منزله، جحدَت قليلاً بسبب حرمانها من ليلةٍ ممتازةٍ كانت تخطط لها طوال الطريق، ولكنها حزنت عليه جداً، وطلبَ منها طلباً غريباً جداً...

- بدي بس أنام، وبدي تمسحي على راسي لأغفى!

ابتسمت واستغربت ماهية هذا الغبي، ورغم ذلك فعلت له ما طلب، أسبوعٌ يأتيها كل يومٍ تمسح على رأسه، حتى قرر الرجوع، وليس الرجوع الدائم لحضن أمه، بل الرجوع مودعاً لها، وأخذ حقيبته وثيابه ذاهباً ليسكن ويعمل بجانب جامعته وينهي فصلَه الأخير، وبعد إنهاء إجراءات طلاق سناء، ذهب وبدأ العمل في مطعمٍ بجانب الجامعة، وسكن في سِدة المطعم، بين قهر أمه الذي يفكر فيه كل يوم وبين هروبه من البلدة خوفاً من العار

والفضيحة التي كانت السبب فيها سناء، وحتى أمه، أو حتى أسامة من الأساس.

معالي عمر، ذاهبٌ بأبهى حُلةٍ لتناول طعام الغداء في منزل أسامة، مؤذن المسجد، وقد ذبح له خروفين بالفعل وشواهما في حفرةٍ مليئة بالفحم، سال عرقُه بشدةٍ أمام الحفرة المشتعلة، وأخرج اللحم منها مشوياً بالكامل كما يحبه الذوات، ولك أن تتخيل مظهر أسامة بل وحتى فلاح، في حفرٍ أعتى وأمرّ، تأكلهما النيران، ومع أننا لا ندرك حقيقة جهنم بعقولنا الإنسانية، إلا أنّ المشهد سيكون جميلاً جداً، لن أنسى نفسي أيضاً، فقد كنت سبباً أيضاً في ضحايا كثيرين، أولهم أمي والأخرى سماح، ونساءٌ كثيراتٌ أخريات، منهن من أغويتها لتخون زوجها، ومنهن من ضحكت عليها بمشاعر الحب وسرقت نقودها ولم ترَ وجهي بعدها، وتلك زوجة الجزار التي لي منها ولدان مسجلان باسم الجزار، وألقي عليهما السلام يومياً والكثير الكثير، أنا متأكدٌ من أن جهنم

بانتظاري، وستكون سعيدةً بتذويب لحمي وعظامي على بلاطها الملتهب...

عائداً من كرم الزيتون الخاص به، ملاحظاً سيارةً فخمةً أمام منزل أسامة، دقَ الإمام فلاح باب أسامة ودخل، ونظر لأسامة نظرة غضب، عندما عرفَ عمر، ومن لا يعرف عمر، رحب الإمام بعمر أشدَ الترحيب، واعتذر منه لكونه كان في كرم زيتونه، بل وجلس فلاح لتناول الغداء معه دون أن يكرمه أسامة ودون عزيمة، وقد كان ينظر لأسامة نظراتٍ غاضبة، متوعداً إياه بالعقاب كونه تصرف ودعا أحدَ الذوات دونه...

غادر الضيف وبقيَ التوْءَم الحقير، توْءَم الشهوات والملذات، عاتب فلاح أسامة بشدة، وأخبره بأنه سيفصله من عمله.....

- يا شيخ فلاح مشان الله، أنا ما كنت بتعدى عليك....

- بدك تصير شيخ من وراي يا أسامة الكلب؟

- ما عاذ الله يا شيخ فلاح، ما في شيوخ وأنت موجود، لكن قلت لحالي الشيخ فلاح مش موجود وأنا لازم أقوم بواجب ضيوفه.

النائب عمر ضيفك وضيف البلد يا شيخ فلاح، وأنا عزمته بإسمك وبتقدر تسأله.

هدأ غضب فلاح قليلاً وارتاح، وأخبر أسامة بأنه سيسأل النائب السابق عن ذلك، وإن كان كاذباً فليتبوء مقعده من غضب الإمام.

- شو قصدك يا أسامة؟ فشلت خطتنا؟

- فشلت يا أم ملحم، وقولي الحمد لله إنه رقابنا لسا موجودة!

فلاح شاف عمر عندي وقام بالواجب تجاه عمر واتجاهي كمان.

- يعني شو؟

- يعني خليكي إقبلي اللي بعطيكي إياه فلاح، وأنا رح أقبل بالقروش أحسن ما يتسلط علينا فلاح.

يومان آخران كان عمر في منزل أم ملحم، ترقص له وتدخله غرفة نومها آخر السهرة، وكان ذلك عن طريق الإمام فلاح، وليس كخطتها بأن يقوم أسامة بذلك فتأخذ كلَ المكاسب، وها هي ترقص لعمر، وتقَبل عمر، وتضطجع لعمر، وكل المكاسب لصديق عمر، الإمام فلاح، وها هو أسامة يجمع دولارات عمر تحتَ أرجل أم ملحم ويحصل على القروش فقط بالمقابل....

تزامن نشاط عمر الليلي في بيت أم ملحم مع أعمال الخير وتوزيع المؤن على الناس في البلدة نهاراً، فلا تنسَ، فهو موسم الانتخابات

البرلمانية، ولا بدَ من التوزيع على من كانت أحلامهم لا تتعدى كيساً من اللحم والمُؤن.

عامل نظافةٍ يعمل في البلدية التابعة للبلدة، كان أحدَ ضحايا عمر، أو أحد المحظوظين بكيس اللحم والمؤن، وتلك الأرملة أيضاً كانت هدفاً، وذاك الرجل ميسور الحال وعلى الرغم من يُسر حاله إلا أن عمر أعطاه أكياساً وليس واحداً، فإن لديه أحد عشر صوتاً.

رجلٌ آخر من سكان أطراف البلدة، وها هو ضوء البرق الذي يدخل نافذتهم، وصوت الرعد الذي يتخطى النافذة المكسورة، يذكره بأنّ وقود المدفأة لم يتبقَّ منه إلا القليل، في تلك الغرفة المستأجرة الباردة، والتي لا أثاث فيها، وذات الجدران التي تدمع الماء عليهم في الشتاء، ومظهر أطفاله نصف العُراة، وهذه الزوجة الجميلة ذات الثياب "المرَقعة"، كل ذلك يذكره بأنه كان وما زال وسيكون الفقير المعدم.

جائعون هم أبناؤه، عباراتٌ تُقلقه كل يومٍ من أطفاله، فما العشاء الليلة وهل يوجد طعام؟، أسئلةٌ أصيغها لك بالفصحى ولكن طريقة سؤالهم كانت حزينةً جداً، نظرات أبيهم لهم كانت نظرات الحزن والأسى، والحرج من نفسه، فلا يوجد في بيتهم إلا الخبز اليابس وبقايا طماطم بدأت بالتعفن، يختزلونها ليومٍ عابس.

هدأ جوُهم العائلي، بدأ الجميع ينظرون إلى لهب مدفأة الكاز وهو يختفي، والدفء يخرج من أجسادهم شبه العارية، أخبرهم والدهم بجلب البطانيات وتدفئه أنفسهم، إلا أن جوابهم كان بأن البطانيات مُهترئة وممزقَة، ولن تزيدهم إلا برداً....

قام بسرعةٍ وأحضر البطانيات وأحرقها في دلوٍ من حديد، بحركةٍ بائسةٍ طالباً للدفء، الذي سرعان ما زال وقد بدؤوا بالسعال وسالت دموعهم، وقد كان دخان البطانيات المحروقة يحجب الرؤية فيتراكض الأطفال خوفاً من أن يصطدموا ببعضهم البعض.

وبعد أن أخرجوا الدخان من الشبابيك، وتوقف الأطفال عن اللعب، يتسمرون في مكانهم من قلة الدفء، طُرق الباب ففتحه الرجل فناوله أسامة ظرفاً من النقود، وقال له بأن يكون غداً من جماعة النائب عمر، وأن يُصوت له، ويا ويله إن تخلف.

لم يتخيل الرجل أنه في هذه الدناءة في عيونهم، فهو يتقبل الرشوة بأسلوب محترمٍ وجلسةٍ جميلة وكلام كعسلٍ مُصفى، أما أن يأخذ الرشوة عن الباب فهذا غير لائق، وما كان منه إلا أن صفعَ أسامة بظرف النقود وأغلق الباب في وجهه، ثم جلس على مائدة الخبز اليابس غاضباً، وطُرق الباب من جديد، قام ناوياً ضرب أسامة إن كان هو الطارق مجدداً.....

كان الطارق ابن أخيه، يخبره بأن النائب عمر في منزلهم، بل ويسأل عنه شخصياً، لم يتعوَد أن يسأل عنه النواب والذوات، ولا يمكن للرجل إنكار فرحه، فقد لبس حذاءه المشقوق مسرعاً لمنزل أخيه فدخل، قام عمر وسلمَ عليه وقبَله، وقام الإمام فلاح وبادر بمدِ

يده والسلام، وحتى أسامة الذي صُفِعَ من الرجل كان يبتسم بحنانٍ في وجهه!

لم يُصدق الرجل نفسه في بداية الأمر، إلى أن أقنع نفسه بأنه مهم، تحدَث الجميع وطلب منهم عمر التصويت له، فقبل الجميع شريطةَ تنفيذ طلباتهم، تناولوا جميعاً طعام العشاء، تلك الوجبة التي ينام أطفاله دونها معظم الأيام، ثم قام عمر ووزع عليهم أكياساً تحوي مؤنةً وما تشتهيه الأنفس، وعاد بالأغراض التي ابتهج أطفاله حالَ رؤيتها، ولا بدَ من أن رؤية أصحاب المعالي تغير المعتقدات عند بعض الناس، فحتى من كان لا يرتشي، أصبح يرتشي بطريقةٍ أو بأخرى.

وفي صباح اليوم التالي، يوم الانتخابات المنشود، حصل عمر على الأصوات، وحال خروج الرجل من غرفة الاقتراع، ناوله عمر نفس ظرف النقود، وكأنه يُخبره بأن مهمته انتهت، صدرَت النتائج في التلفاز الرسميّ وفاز عمر وأصبح نائباً برلمانياً مجدداً، فرح عمر

وفرح الرجل وأطفاله وفرحت كُلُ البلدة، كيف لا يفرح الرجل وقد وعده عمر بأن ابنه سيذهب للجامعة بمنحةٍ دراسية، وسيجد هو وظيفة، وسيتناول أطفاله الطعام.

تفاجأ الجميع من أن النائب عمر انتقل مباشرةً للمدينة، قيل بأنه ركب سيارته ذات الزجاج الأسود وانطلق بها، حتى أنه لم يحتفل مع خرافه بنجاحه، صباح اليوم التالي، ذهب الرجل في أول باصٍ للمدينة ورافقته زوجته، وتحديداً لمنزل عمر، وكانت كلمة منزل ظالمةً بحق ذلك القصر، خرج عمر مع سورٍ بشريٍ ضخمٍ يختبئ خلفه، ركض الرجل إليه مسرعاً فدفعه أحدُ كلابه أرضاً على الوحل والطين، ولم يكن مظهره جميلاً أمام زوجته، فصرَخ بأعلى صوته....

- يا حرس، مين هالحيوان؟

عندها برزَت عيون الرجل من رأسه، وأخبر عمر بأنه ممن أنجحوه في الانتخابات، ضحك عمر وضحك رجاله مجاملةً له، في الوقت

الذي كان قلب الرجل يبكي دماً من الإحراج، نظر له عمر نظرة احتقارٍ وهو يمسك السيجار الكوبيَ الفاخر بين أصابعه، ويغلق نافذة السيارة السوداء، ساعدته زوجته على النهوض، عاد لمنزله وتقطَع قلبه عندما رآى ابنه فرحاً وكأن المقعد الجامعيَ أصبح في جيبه، دخل ووقف بين أفراد العائلة الجائعين ذابلي الأعين، وقال لابنه بأنّ عليه الذهاب للعمل مع أبي سعيدٍ في جمع الخردة، وقال للعائلة بأنهم لن يتناولوا الطعام إلى أجلٍ غير معلوم.

يصنع أسامة أفخر أنواع "السندويش"، وتشتري منه الطالبات الساكنات في مساكنَ خلف الجامعة، وتهمس إحداهن للأخريات بأنه الطالب المكافح الذي حدَثتهنَ عنه مسبقاً، يحصر محاضراته صباحاً، ويعمل في المطعم مساءً، ويدرس لوحده حتى منتصف الليل، يغفو أثناء محاضرته الأولى وقد طرده مدرس المادة مراراً وتكراراً، يبعث لأمه مصروفاً شهرياً يسدُ حاجتها، ولقد تفاجأ مدرس المادة عمّا أحرز عبادة علامةً ممتازةً في الامتحان، واستغرب من كونه نفس الطالب النائم في أغلب المحاضرات.

ولم يطُل يوم التخرج، وها هي والدته ترتدي ثوباً جديداً محتفلةً بيوم تخرُج ابنها الوحيد، نسيَت همَه الدائم، بل ونسيَه عبادة عندما زفَه الأقران وكانت ضحكاته تملأ الدنيا سعادة، وضحكت والدته وضحك الجميع عندما رماه الأصحاب ليلامس السماء أثناء الزفة ليطير حذاءه مبتعداً وقد ملأ الدنيا بصراخ الفرح، قبّلته والدته كثيراً وأحضرت له باقة زهورٍ وفرَت ثمنها مما كان

يبعث لها به، أخبرته كم كانت شبقةً ليومٍ تراه فيه محامياً ناجحاً تفاخر به الدنيا.

فرحةً كانت وبدموع الفرح تارة، ودموع الحزن تارةً أخرى، تتذكر والده الذي توفاه الله منذ زمن، كم سيكون فرحاً بتخرج ابنه الوحيد، لم تخبر عبادة بذلك فلم ترغب بتنغيص فرحته عليه، إلا أنه....

- آخ يا أمي، لو كان أبوي عايش وشافني بتخرج بس!

ومشهدٌ للدموع المنهمرة من الأم وابنها، يحتضنان بعضهما بقوة، ومشهدٌ آخر لفتاةٍ تحب عبادة منذ زمن، يبارك لها والدها بعدَ أن حصلت على لقب أولى الدفعة، تنظر لعبادة الذي كان على ذمة أخرى بنظرها، كانت فرحةً بتخرجها وما حصلت عليه، حزينةً على ما فاتها من عبادة وجمال عبادة، غصةٌ في قلبها على حبيبها القديم والذي لم يُعرها الاهتمام يوماً.

انتهى الاحتفال وذهب كلٌّ لمنزله، ومشهدٌ لعامل النظافة الخاص بالجامعة، يجمع ما ألقاه الجميع على الأرض، بجبينٍ لا يحتوي غير السُمرة، أكلته الشمس الحارقة، بين تنظيف مكاتب المدرسينَ وجمع نفايات الاحتفالات كان عمله، وهنا يكمن الشرُ في الخير، خير التخريجات والفرح والسرور، وشر رميِ النفايات من أطفالٍ تخرجوا للتو من الجامعة، يقوم رجلٌ ستيني بجمعها.

- أم ملحم... مش ملاحظة موضوع جارتك طوَل؟

- شو أعمل يا فلاح؟ عملت كل اللي بدك إياه، قويت علاقتي فيها. ما حكيتلي بعد هيك شو أعمل!

- طيب كيف علاقتك فيها حالياً؟

- ممتازة وعال العال، ولما بتحتاج فلوس بتستلف مني، وكل كم يوم بزورها أو بتزورني.

- طيب خذي هاي العلبة.

- شو هاي يا فلاح؟

- هاي منوم، تأثيره عالي جداً وقوي، اللي بوخذه ما بحس شو ما صارله، ولوقت قليل ما بتعدى الساعة.

- شو بدي أعمل بالمنوم يا فلاح؟

- خلاصة الكلام، بتعزمي جارتك عندك وبتشربيها قهوة. قطرتين من هاي العلبة رح تنام لساعة ما رح تحس أبداً. أنا رح أكون عندك متخبي بغرفة ثانية، وبس تنام رح...

- طيب فرضاً صحيت!

- المنوم كثير قوي، ولما تنام إنتي بتناديني وبصورها وهي شالحة وكمان...

- والله إنك شيطان يا فلاح!

- وبعدها بتفرجيها الفيديو لما أعطيكي خبر، ورح تعمل شو ما بدنا.

ما تنسي يا أم ملحم قطرتين بس، أكثر من قطرتين بتنام عندك طول اليوم.

استني مني أحكيلك متى رح تعملي هالشغلة.

وها هي زوجة النجار تنشر الغسيل على سطح منزلهم، ويتناول زوجها ذات الشايِ الخمير، وتراقبها أم ملحم عن كثَب منتظرةً إشارة فلاح لتنفيذ الخطة.

وها هو أجنبيٌ حضر مع فلاح من بلادٍ غربية، نظامهم وعاداتهم بأن الزنى ما هو إلا تبادلٌ للعشق واكتشاف تفاصيل الآخر، ينظر

الأجنبي لفلاح ولحيته بعدَ أن عرف أنه إمام مسجد ومتقلدٌ لبعض المناصب الدينية والسياسية بتعجب، لم يكن فلاح يفقه شيئاً من لغته، ولكن الاستعانة بشخص ذكي متمرسٍ في اللغة مقابل المال أمر سهل، ولا تخف فلن يشيَ بالإمام، لأنه قبضَ المال، كما أن الخوف من فلاح وما يستطيع فعله سيجعله يخرس للأبد، وإن لم يخرس فنصف ساعةٍ في حضن أم ملحم كافيةٌ لذلك، أو رصاصةً في الرأس!

يتعجب الأجنبي من فلاح في سره، فهو يعرف الإسلام وقرأ عنه الكثير، فليس هكذا يكون المسلمون، وليس من عادتهم أخذ الضيوف لبيوت الدعارة مقابل الدولارات، جاء الأجنبي كخبيرٍ لتركيب "ماكناتٍ" لمصنعٍ جديد سيتم افتتاحه لنفس النائب عمر، فعمر لم يأكل كلَ خيرات البلدة بعد، وبعدَ أن أكل أصواتهم ما زال يريد أن يأكلهم لحماً ويرميهم عظماً.

وبدلاً من أن يأخذه فلاح للمسجد ويريَه حقيقة الإسلام والمسلمين، وبدلاً من إخباره بأن مصطلح "المسلِم الإرهابي" ما هو إلا مصطلحٌ اخترعه الغرب لتسهيل الدخول واقتحام الشعوب والسيطرة، ذهب به لمنزل أم ملحم، والتي بدورها فرحت بعد أن ملَت من الرجال العرب المتشابهين حتى بالأسلوب...

- جبتلك أجنبي أشقر يا أم ملحم!

- من وين جبت هالصيد يا فلاح؟

- شو بدك فيه، المهم صار لازم تغيري طعم ثمك، وما تنسي الأجنبي بيدفع بالعملة الصعبة.

وبعدَ أن اكتشفت أم ملحم بأن كلَ الرجال سواء، وكلهم يرغبون فقط بفرجها العفِن، زالت فكرة رُقيِ الرجل الغربيّ من بالها، فهي غالباً ما تشاهد البرامج على التلفاز لكيفيه معاملة الرجل الغربي للمرأة، والتي شاهدت عكسها تماماً على أرض الواقع، فلقد فعل كفلاح وشدّ شعرها بقوة.

أنهى بسرعةٍ ما يريد، ورفع بنطاله خارجاً من غرفتها والإمام ينتظر أمام الغرفة وقد كان يُثني على أم ملحم وهي تداعب الأجنبيَ بالأصوات الناعمة، خرج الأجنبي ووجد فلاح يفرك يديه ببعضهما منتظراً الدولارات، وبعد أن أعطاه ما كان ينتظر، نظر لفلاح باستغراب، بل وبعض الاستخفاف...

**Mr.falah. are you really musslem?**

وكان فلاح يضحك بغباء، متظاهراً بالفهم أثناء وضعه الدولارات في جيبه.

- معك حق يا "فريند" أم ملحم حلوة كثير وبتستاهل تدفع هالفلوس مشانها

- **Are you really musslem?**

**Islam is not like that!**

**You are a son of a bitch.**

**- مشكور بارك الله فيك، والله احنا نحبكم ونحب حضارتكم وبنتمنى نصير مثلكم يوم من الأيام!**

سكن عبادة مع والدته كالسابق، عمل في مكتبٍ للمحاماة ولكنه طُرد بعد اكتشافه تفاصيلَ هامة في قضيةٍ ماكرة، يسعى لها صاحب المكتب وجلس يبحث عن عملٍ من جديد، وعاد يعمل في المطعم القديم الذي عمل فيه لأول مرةٍ في البلدة.

وها هو عبادة يمشي بمحاذاة إحدى البقالات متجهاً لعمله في المطعم، وبعد مرور أكثر من أربعة أشهرٍ في عمل السندويشات، أمسك بجريدةٍ يقرأها أمام البقالة، خرج صاحب البقالة ونهره، فمن يرغب بقراءة الجريدة فليشتريها، أعاد عبادة الجريدة لمكانها بعد طويها ليلمح إعلاناً مكتوباً بالخط العريض "مطلوب محامي"، دفع ثمن الجريدة وجلس على عتبة البقالة يقرأ التفاصيل، واتصل على صاحب الإعلان ليجدها فتاة، وعلى أي حال حُددَت له مقابلةٌ في اليوم التالي.

لبس عبادة ذات بذلة تخرجه، حلقَ ذقنه ورش الكثير من العطر، استقل الباص وهو في كامل أناقته، واستغرب البعض من كون

رجلٍ بهذة الأناقة يستقل الباص، ووصل وجهته أخيراً ودخل للمكتب، وكانت صاحبة المكتب تراقب دخوله عبر الكاميرات، وما هذا المكتب الجميل، ولا بدَ من أنَّ صاحبه غنيٌّ جداً، ولا يمسك إلا بالقضايا الهامَة، كلها أسئلةٌ تملأ رأس عبادة، وكرسيٌّ ملفوفٌ خلف المكتب الفخم، ولا يبان الشخص الجالس عليه، لابدَ وأنه صاحب بنيةٍ خفيفة، لا يهم، فربما هو محامٍ ممتاز، وكيف لا يكون ولديه هذا المكتب الفخم!

- أهلاً وسهلاً يا عبادة.

ولم يُلَف الكرسيُ بعد.....

- أهلاً يا أستاذة.

- أُستاذة؟!

نسيتني يا عبادة؟

دارت بالكرسي وإذ بها سارة، وهل نسيتَ سارة؟

سارة من كانت تعشقه وتطلب منه المحاضرات يومياً للتقرب، سارة من صارحته بحبها قبل زفافه بيومين، سارة من كانت تتنمر عليها الفتيات بسبب ضخامتها، عملية شفط دهونٍ والسيطرة على الهرمونات، كانت كفيلةً بإرجاعها لأقل من نصف وزنها، ما هذا الجمال والسحر، وما هذه الملامح الأنثوية البارزة؟

- تفضل استرِح أستاذ عبادة، بدنا نقابلك لنشوف بينفع تشتغل معنا ولا لأ.

- بس..... كيف؟ انتي؟

- أترك التفاصيل يا عبادة وركز معي لإنه صدقاً ما عندي وقت.

- ما بدي أشتغل أنا، هسا هسا بدي أعرف كيف!

جلسةٌ لساعتين، تبادلا أطراف الحديث، وفهم منها كامل قصَتها، وقد فتح لها والدها مكتباً فخماً للمحاماة، وقد حصلت على منحةٍ من الجامعة لدراسة الماجستير والدكتوراه على نفقة الجامعة

وستبدأ بالدراسة قريباً، وهل تسمع ضربات قلبها ما زالت تنبض لعبادة، وانتهت المقابلة بتعيينه وبراتبٍ عالٍ لم يتوقعه طيله حياته، وكان عبادة ما يزال يتابع جلسات العلاج النفسي والعضوي عند الأطباء، وها هي مشكلته في طريق الحل ولاحظ ذلك تدريجياً عندما أصبح قلبه بل وكلُ جسده يدقُ عند رؤية الفاتنات.

يومان آخران وكانت سارة تأخذ عبادة للمحكمة، وفي الطريق سألته عن أحوال زواجه، فأخبرها بأنه حرٌ طليق، فطلبت يده للزواج دون تردد فرح عبادة وفرحت والدته، وخصوصاً بعدَ أن شُفي عبادة من مرضه، وكانت فكرة أنها ستصبح جدةً يوماً من الأيام مبهجةً جداً.

علمَت سناء وأمها بشفاء عبادة، بل وعلمت بأنه سيتزوج سارة، صاحبة المكتب والعز والجاة، وها هي سناء تدق باب أم عبادة وكان

عبادة وسارة يتناولان عندها طعام الغداء، وفتح لها عبادة الباب....

- عبادة!!!

ممكن تسمعني؟ أنا بحبك والله، صحيح تجوزت يا عبادة؟

أغلق الباب بوجهها دون أي كلمةٍ منه، جرَت خيبتها ورحلت، وأقل ما يقال بأنها أحبت أكثر من عشرة رجال، وأكثر من عشر خيبات، يلهو بها الشبان باسم الحبّ ومع كلِ علاقةٍ تفشل، تتذكر عبادة، وسألته أمه وسارة عمَن كان بالباب....

- شحادة مسكينة على باب الله، أعطيتها اللي فيه النصيب وراحت، ودعتلنا بالفرح والسعادة...

- الله يخليلي اياك حبيبي، فعلاً لازم نعطف على هذول الناس ونوقف جنبهم...

لم يمهله الفرح كثيراً، توفيت أم عبادة بعد أسبوع، وقبلَ أن ترى حفيدها الأول، أقام لها ولدها العزاء وقد حضر كل أهل البلدة

وحتى فلاح وبين "عظَم الله أجركم وشكَر الله سعيكم" ينظر أسامة لذلك الحقير الجالس في عزاء أمه، إنه أسامة، نسي الحزن على أمه وامتلأ قلبه بالحقد الدفين والغضب عندما رأى أسامة يلاعب طفلاً صغيراً جاء مع والده للعزاء، وحالما قام فلاح لحقه كلبه المطيع أسامة، سلّم أسامة على عبادة وشدّ على يده، وتلاقت العيون بغضب....

- ليش كنت بتلاعب الصغير يا أسامة؟

- شو دخلك إنت، صغير ومن ملائكة الرحمن وبلاعبه بس!

- بتلاعبه ولا.....

- شكلك يا عبادة تذكرت إنك كنت بمثل عمره لما كنت أعلمك عالوضوء، لازم تحترمني وتقدر هالشيء.

دبَت مشاعر الانتقام في قلب عبادة، وفي أول أيام انتهاء العزاء، كان بإمكانك رؤية المؤذن أسامة عائداً من منزل أم ملحم بعد صلاة العشاء، والظاهر بأنها كانت ترتدي له الفستان الأحمر، ولا

أحد في الشارع، بدأ يرتجف عندما أمسك به شخصٌ ما، يضع قناعاً على وجهه ولكن صوته مألوفٌ جداً، وقام الغريب بدفعه على الحائط ووضع السكين على عنقه، وبعد أن حاول أسامة رفع غطاء الوجه...

- عباااادة! شوو، شو بدك، شيل السكين عن رقبتي...

أنا آسف، آسف يا عبادة، ما كان قصدي، كنت أمزح معك بالعزاء!

ما تقتلني مشان الله....

وبغضبٍ شديدٍ وعيون حمراء لا يملؤها إلا الدم والانتقام.....

- إنت عارف كم عقدة نفسية سببتلي؟

عارف إنت شو حرمتني؟

عارف كم مرة بكيت بسببك؟

عارف إني كنت أخاف حتى من الأطفال وما ألعب معهم وأنا صغير بسببك؟

إنت عارف إني.....

- خلص أنا آسف، بعطيك.... بعطيك شو ما بدك!

قد ما بدك بعطيك مصاري، رح أخلي فلاح يعينك بالحكومة محامي قد الدنيا...

- بدك تخلي فلاح يعينني محامي بالحكومة؟

أنا أصلاً درست محاماة مشان أدافع عن حالي بعد اللي رح أعمله فيك يا وسخ.

أنا ما بدي أقتلك، بدي بس تعيش الي أنا عشتُه بدي تعيش مع مرتك كأنكم اثنتين إخوات!

وغرسَ أسامة سكينه بين أرجل أسامة، ولا شكَ بأنه عقرَه، عبأ الدم ثوب أسامة الأبيض وملأ صراخه الحارة بينما هرب عبادة ونام في فراش زوجته سارة بأمان بعدما أخذ بثأره القديم وارتاح قلبه، أخبرها في الصباح بما فعل، صاحت فيه وأصابها القهر، فهي تنتظر مولوداً بعدَ أشهر، ذهب عبادة وسلّم نفسه للشرطة، بينما

كان أسامة ملقى على ظهره في المشفى مباعداً ساقيه والكثير من الضماد يملأ ما بين فخذيه، والظاهر بأن الضربة كانت قويةً جداً، فقدَ رجولته فيها، والتي كان يفتخر بها أمام الأطفال، أخبره الأطباء بأنّ زمان المتعة قد انتهى وأنه لن يحلم بالأطفال والمتعة مجدداً...

حُكم على عبادة بست سنوات في السجن ودفع تعويضٍ كبيرٍ لأسامة، وكانت حجة عدم تخفيف الحكم بأنه محامٍ يعرف القانون ووجوب عدم التعدي على الناس، دفعت سارة الغرامة، وكانت ستنتظره العمر كله، وليس لست سنواتٍ فقط.

ذكّر الإمام فلاح أم ملحم بأن موعد تنفيذ خطة إغواء الجارة قد حان، وحان وقت استخدام المنوم والتصوير، كان مشغولاً بصحبة سياسيين من الطراز الرفيع ولم يذكر لها موضوع الجارة لأربع أشهرٍ مرَت على إعطائه زجاجة المخدر لها....

وها هي زوجة النجار تشرب قهوة أم ملحم، والتي سهت عينها عن علبة المخدر لتضع أكثر من ربعها في الفنجان، ونامت زوجة النجار.

وها هي أم ملحم تخلع ثياب الجارة، وها هي تُلبسها قميص النوم الأحمر الذي يحبه فلاح، بعدَ أن رمَت ثوب الصلاة بعيداً، وها هو فلاح يقوم بتصويرها أثناء تحسس جسدها وسط نظراتٍ مشمئزةٍ من أم ملحم المُجبره....

وها هو النجار يعود من عمله باكراً على غير عادة، لم يجد زوجته في المنزل، سأل أطفال الحي المنهمكين في اللعب، فأشاروا لبيت أم ملحم، فدقَ النجار الباب ونادى، فصعق الإمام خوفاً، وطلب من

أم ملحم مفتاح الباب الخلفي ليهرب، ولم تقبَل أم ملحم أن تكون وحدها في تلك الورطة...

- والله ما بتطلع يا فلاح، الزلمة بدُق الباب، بدَك تتركني لحالي؟!

- أعطيني المفتاح يا حقيرة.

سمع النجار صوت فلاحٍ يصرخ، فدخل مسرعاً ليجد زوجته نائمةً ترتدي قميصاً يصف ويشف، وحولها فلاح وأم ملحم، وما زال فلاح ممسكاً هاتفه وما زال بوضع التصوير، وبإمكانك سماع صوت اللكمات على وجه الإمام، عضَ النجار أصابع فلاح بقهرٍ شديد، فقطع له ثلاثة أصابع، أثناء حضور الجيران وإبعاد النجار عن فلاح كي لا يقتله....

وفي غرفة المستشفى الخاصة بخياطة الجروح، أخبر الأطباء فلاح بأن خياطة أصابعه أمرٌ مستحيل، فأسنان النجار كانت قويةً كفاية لتحطيم العظام والأعصاب، وكانت مفاجأة فلاح عندما

أجبره الأطباء على تكرار فحوصات الدم، والتي اتضح من خلالها أنه مصاب بالأيدز....

كان ناقل الفيروس هو الأجنبي الخبير الذي غزا فراش أم ملحم بمباركةٍ من فلاح، والتي بدورها نقلت الفيروس لفلاح وغيره، وفي اليوم التالي كانت أم ملحم تتلقى الصفعات في مركز الشرطة واعترفت على من تعرفهم ممن ناموا في فراشها الدافىء، وكانت فِرق التقصي والشرطة تقتاد المذكورة أسماءهم لعمل فحوصات الأيدز.

خرج عبادة من السجن بعد قضاء محكوميته، سنوات مرَت كالعلقم، وسلم على ابنه وضمه لصدره للمرة الأولى، ذهب وقرأ الفاتحة على قبر والدته وأتبعها بفاتحةٍ على قبر والده، وكان الانتصار الأعظم له عندما سمع بأن أسامة في مصحةٍ ما ووضعه سيّئ وعلى شفير الموت.

ومشهدٌ آخر لحقائب كثيرة، وباصٌ محمل بأغراض المنزل والأثاث، تستنتج منه بأن النجار وزوجته وأطفاله راحلون إلى مكانٍ أطهر وأنقى كنقاء قلوبهم، انطلقوا بعد أن قبَل النجار رأس زوجته، وأخبرها بأنه يحبها وأنه سيدافع عنها حتى الموت....

وهذا هو المشهد الأعظم، مصحَة الأمراض الخطيرة والمُعدية، وذاك فلاح ينظر لأصابعه المبتورة، والطفح الجلديُ يغزو وجهه الحقير، وذاك أسامة على كرسيٍ مدولب وما زال مباعداً ساقيه وبالكاد ينهض رأسه، وتلك أم ملحم الساقطة، والطفح الجلديُ ظاهرٌ على وجهها وحتى على ما كانت تعطيه للرجال بالمال، وها هنا

أكثر من سبعين رجلاً من البلدة، منهم من ترافقه زوجته في المصحَة، بعد أن نقلوا الأيدز لهن، ومنهم من لم ينقله لزوجته، فقد كان ينام في فراش أم ملحم ولا يغفو مجرد غفوةٍ في فراش زوجته، ومشهدٌ محبب جداً، لوزيرين وثلاث نوابٍ برلمانيين في نفس المصحة وبقسمٍ خاصٍ بهم كانوا قد روحوا عن أنفسهم من هموم الشعب والوطن في فراش الداعرة.

وها أنا ذا، من أخبرتك بكل ذلك، بشعرٍ أشعث أجعد، بوجهٍ ملولٍ متجهم، وبذات ملابس البالة التي رأيتني فيها بالمسجد متكئاً على عامودٍ مُصابٌ بما أصابهم، فقد كنت أغزو فراش أم ملحم بين الحين والآخر، وكما تمنيت يا عزيزي أن تعرف اسمي في كل موقف حقير فعلته وفي كل مرةٍ يناديني أحدهم، أنا أُمثل العالم القذر كما أخبرتك، أُمثل الأفكار الداعرة في خيال البشر فعلوها أم لم يفعلوها.... أنا فاجر.

تمت بحمد الله

# للتواصل مع الكاتب

واتساب

00962775930913

الايميل

**rawashdeheng1994@gmail.com**

# فاجر

رواية

م: عادل إبراهيم الرواشدة

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com